فنون الأدب العربي
الفن القصصي

٤

الرحلات

بقلم
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الرابعة

دار المعارف

الرّحلات

فنون الأدب العربي
الفن القصصي
٤

الرّحلات

بقلم
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الرابعة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا عَرْض موجز لأشهر كُتُب الرحلات عند العرب، قسمناها فيه أقساماً، فجعلنا منها الجغرافية والبحرية والبرية فى الأمم والبلدان . وقد يكون غريباً أن تكون للجغرافية رحلات بعينها ، ولكن هذا ما حدث فعلا ، فإن القوم لم يعمدوا إلى الكتابة فى الجغرافيا بطريق النقل والرواية عن الآخرين أو السابقين ، بل كانوا يطوفون بأنفسهم فى العالم الإسلامى وغيره ، ويقيدون مشاهداتهم وما يقع تحت أبصارهم . فأصبحت كتاباتهم الجغرافية فى كثير من صورها رحلات بالمعنى الدقيق، تصور أحوال الناس والعمران بالعين الباصرة اللاقطة ، على نحو ما يرى القارئ فى الفصل الأول من هذا الكُتَيِّب .

وفى ثَبَتِ الرحلات العربية تبرز رحلات بحرية ، رويت عن التجار والملاّحين وهواة البحار . وهى تبدأ عند العرب بمغامرات تاجر يسمى سليمان ، قذف بنفسه فى لُجَجِ المحيط الهندى والهادى . ثم تتسع فتشمل مغامرات أخرى فى البحرين الأحمر والأسود، وفى المحيط الأطلسى أو بحر الظلمات . وتتضمن هذه المغامرات كثيراً من المعلومات عن البحار وحيواناتها وأسماكها وأصدافها والأقوام الذين يسكنون على شواطئها . ويصاغ ذلك فى أسلوب قَصَصى بديع ، يؤكّد الواقع أحياناً، وينشئ لنا عوالم خيالية أحياناً أخرى ، مما يراه القارئ ماثلا فى الفصل الثانى .

أما الرحلات فى الأمم والبلدان عن طريق البر وفى القوافل فهى كثيرة

كثرة مفرطة ، وهى أيضاً متنوعة ، فنها ما يقف عند بعض البُلدان العربية كمصر ، ومنها ما يتجاوز حدود العالم العربىّ ، إلى عالم ناء بعيد كعالم البلغار وأوربة الشرقية ، أو عالم الهند والصين ، أو عالم السودان وإفريقية الوسطى . وفى كل هذه العوالم يكتب الرحّالة بمخيلة القصّاص الذى يسند الواقع بالخيال والحقيقة بالأسطورة ، على نحو ما يراه القارئ فى الفصل الثالث .

ووقفنا فى الفصل الرابع عند رحلة ابن جبير فى العالم الإسلامى ، فقد عرض علينا هذا العالم عرضاً قصصيا شائقاً واقتبسنا منه بعض صوره الحية . وفى الفصل الخامس تحدثنا عن رحلة ابن بطوطة ، وعُنينا بقصصه عن الأقطار النائية مثل بلاد البلغار والمغول والهند والصين والسودان الغربىّ ، وقد يشفع حكاياته الحقيقية بحكايات خُرافية ، وهو فى كل ذلك يتقن الصنعة القصصية .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربىّ ، لسبب بسيط ، وهو أنها خير رد على التهمة التى طالما اتُّهم بها هذا الأدب ، ونقصد تهمة قصوره فى فن القصة . ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرءوا ما تقدّمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر وحجاج الهند وأكَلة لحوم البشر وصناع الصين وسكان نهر الفولجا وعبَدة النار والإنسان البدائى والراقى مما يصور الحقيقة حيناً ، ويرتفع بنا إلى عالم خيالىّ حيناً آخر .

وقد انتفعت بما كتبه الباحثون قبلى فى هذا الموضوع وخاصة ما كتبه الدكتور حسين فوزى عن الرحلات البحرية فى « حديث السندباد القديم » . وأرجو مخلصاً أن يكون هذا الكُتَيِّب حافزاً للقراء أن يعودوا إلى كتب الرحلات ليقرءوها ، فإنها ذخائر نفيسة ، والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

شوقى ضيف

القاهرة فى ١٥ من مايو سنة ١٩٥٦ م

تمهيد

إن تاريخ الإنسان إنما هو تاريخ لمحاولاته التعرفَ ثم السيطرةَ على العالم الخارجي من حوله ، وقد ناضل أولا القوى الحيوانية التي تحول بينه وبين هذه السيطرة ، ثم أخذ يناضل القوى الإنسانية ، فتكونت القبيلة ثم تكونت الأمة ، واندفعت من إقليمها إلى الأقاليم المجاورة تكتشف آفاقاً جديدة .

وكل هذه رحلات بدأت ضيقة ، ثم اتسعت مع مرّ الزمن . فالإنسان وُلد راحلا ، وإن أعجزته الرحلة ، تخيل رحلات غير محسوسة فى عالم الخيال ، ونجد ذلك مبثوثاً فى الأساطير الأولى ، كما نجده ماثلا فى الحروب والفتوح القديمة ، وما سطره الملوك الأول فى مصر وغير مصر .

ومن المعروف أن ملوك مصر سجلوا رحلاتهم فى آسيا . وعلى جدران معبد الدير البحرى بمصر العليا تصاوير بديعة لسفن الملكة حتشبسوت من ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهى عائدة من رحلتها إلى بلاد « بونت » فى الجنوب . وأكبر الظن أنهم كانوا يطلقون هذا الاسم على بلاد الصومال . وعلى نحو ما جابت سفننا البحر الأحمر جابت بحر الروم .

وكان للفينيقيين رحلات بحرية كبيرة خاضوا فيها عُباب المحيط الأطلسىّ وَحطّوا رحالهم فى الجزائر البريطانية ، وأقاموا مستعمرات لهم على طول بحر الروم فى الجنوب وفى أسبانيا . وخَلَفهم الإغريق يقيمون مستعمرات لهم فى البحر الأسود وفى بحر الروم ، وقد عُنوا عناية واسعة بوصف البلدان والأقاليم التى زاروها ، وقدموا لنا كثيراً من المعارف الجغرافية ، وهم أول من قال بكروية الأرض وبأن وراء البحار والمحيطات عوالم مسكونة ، تقطنها شعوب مختلفة

وأكبر رحّالة عرفه الإغريق « هيرودوت » الذى زار مصر وقبرص وفينيقيا وآشور وإيران وتوغل فى الشمال إلى البوسفور ، وأودع مشاهداته فى هذه الزيارات أو الرحلات تاريخَه الكبير . وخلّفه طائفة من مؤرخى الإغريق حفلت كتبهم بأخبار الأمم المجاورة ، ولعل أهمهم «بلوتارك» الذى عُنى بتاريخ اليونان والرومان ، ومنه استمد شكسبير كثيراً من مسرحياته .

وتصبح روما عاصمة العالم القديم ، ويتوغل أبناؤها فى إمبراطوريتها الواسعة ، وتصل سفنهم إلى جزائر كناريا فى المحيط الأطلسىّ ، كما تصل إلى الهند والشرق الأقصى ، ويطوفون بدولتهم فى إفريقية وآسيا ، ويجمعون من هنا وهناك أخبار الأمم المفتوحة فى أوربة وغير أوربة ، حتى ليمكن أن يقال إن مؤرخيهم جمعوا لنا كل ما كان معروفاً عن سطح الأرض فى زمانهم . وفى مقدمة هؤلاء المؤرخين يوليوس قيصر الذى دوّن فى كتابه « التعليقات » حروبه فى الغال ، ووراءه كثير من مؤرخى الرومان ، يقصون الأسفار والرحلات ، ويصفون البلدان النائية ، وممن برعوا فى ذلك « تاسيت » الذى قصّ أحوال التيوتون الأوائل فى كتابه « جرمانيا » .

ونلتقى فى القرن الثانى للميلاد ببطليموس الإسكندرىّ ، وهو إغريقى الأصل ، وقد ترك كتابين فى الجغرافية والفلك . ونراه يدوّن وصفاً مفصلا للبلدان والأماكن فى عصره ذاكراً أطوالها وعروضها ، ومبيناً بالرسم مواقعها .

ثم جاء دور العرب ، وفتحوا الأرض من الهند والصين إلى المحيط الأطلسى وجبال البرانس ، ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان ، وأصبح كل ذلك عالماً واحداً مشتركاً فى الدين والثقافة . ووصف مؤرخوهم مدنَ هذا العالم وبلدانه ، كما وصفوا سكانه . وكان ذلك إرهاصاً لما قام به علماؤهم وأدباؤهم من رحلات فى المستقبل ، اشترك فيها التجار وغير التجار .

وكان من أهم الأسباب فى تدوين هذه الرحلات حاجة الدولة إلى معرفة

الطرق الكبرى التى تصل أقاليمها ، ومن ثم ألِّفت كتب كثيرة فى وصف المسالك والممالك . وهذه الحاجة السياسية اقترنت بها حاجة دينية ، إذ كان الحج إلى مكة فريضة على كل مسلم، وكان المسلمون يتجشمون راضين كلّ مشقة فى سبيل أداء هذه الفريضة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة . وعلى طول الطريق فى الشرق والغرب تقيم الدولة ويقيم أهل الخير الحُبوس والرُّبُطَ معونة للحاجِّ ، ويصف كثير من هؤلاء الحاجّ طريقهم إلى الأماكن المقدسة فى كتب أو فى رحلات مختلفة .

وبجانب ذلك كان التجار يَضْرِبون فى أراض جديدة: عن طريق القوافل، وعن طريق البحر وسفنه ، وقد وصلوا فى مغامراتهم إلى الصين والهند وشواطئ إفريقية الشرقية والغربية جنوبىّ خط الاستواء ، واستطاعوا أن ينشروا الإسلام فى أندونيسيا وغيرها من الجزائر الهندية النائية . وما قصة « السندباد البحرى » الخيالية إلا صورة لمغامراتهم فى البحار الجنوبية .

وكانت السفارات لا تفتر بين الدول العربية والدول المجاورة من غربية وغير غربية ، وكانوا يسجلون ذلك فى رسائلهم ، وقد يرحلون حبا للاستطلاع كما رحل سلّام الترجمان بأمر الخليفة الواثق (٢٢٧هـ / ٨٤١ م) للبحث عن سدّ الصين الكبير، الذى يقال إن الإسكندر بناه بين العالم القديم وديار يأجوج ومأجوج .

ولهذه الأسباب مجتمعة كثرت الرحلات عند العرب وتنوعت بتنوع أسبابها وحوافزها السياسية ، والدينية ، والاقتصادية ، ونشأت عند كثيرين منهم محبة المجازفة فيما وراء المعروف ،حتى ليُظَنّ أن منهم من وصل إلى أمريكا قبل أن يكتشفها كولمبوس . وإن فى قصة الفتية المغرّرين من شبّاب لشبونة التى رواها الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » ما يشير إلى ذلك ، فقد أوغلوا فى المحيط الأطلسى أو بحر الظلمات إلى مَسيرة شهرين من بلادهم ، ورأوا

جزائر وشعوبا غريبة . وليس من المصادفة أن يكون رائد ڤاسكو دى جاما فى اقتحامه بحر الهند من الرجاء الصالح عربىّ يسمى ابن ماجد

وتفتح الحروب الصليبية صفحة جديدة فى تاريخ أوربة ، ويأخذ أهلها فى تسجيل أسفارهم ورحلاتهم ، ولا يلبث مركوپولو أن يكتب رحلته المشهورة التى وصف فيها وصفا بديعا مشاهداته من بلده إيطاليا إلى صحراء جوبى وسهول منغوليا فى الصين .

ويجل القرن الخامس عشر انتصار البرتغاليين على المحيط الأطلسى المسمّى بحر الظلمات أو الأوقيانوس ، فقد تتابعت بعوثهم تكشف مجاهله من جزائر وشواطئ مختلفة حتى وصلت إلى رأس الرجاء الصالح ، واندفع كولمبوس إلى الغرب ، فاكشف أمريكا ، واكتشف ڤاسكو دى جاما بحر الهند ، واستطاع ماجلاّن فى أوائل القرن السادس عشر أن يذرع البحار والمحيطات بأسطوله الشراعىّ ، ويُثبت كروية الأرض بالدليل العملىّ .

ومنذ هذا التاريخ تدخل أوربة ويدخل العالم فى عصر الاستكشافات الكبير ، فتُكْتَشَفُ أستراليا وجزر المحيط الهادى . وتتعاقب الاستكشافات فى القارات القديمة والقارات الجديدة . ويسجِّل القرن الماضى انتصاراً رائعا للأوربيين ، فلا يبقى نهر فى إفريقية إلا يُكْتَشف مَصَبُّه ، ولا تبقى صحراء كبيرة إلا يذرعونها طولا وعرضاً ، ويسيرون فى مناكبها وجوانبها الغامرة . وتمتد آمالهم إلى القطبين الشمالى والجنوبىّ ، وتنجاب أسرارهما .

وفى هذا القرن العشرين يصبح للطيارة فصول فى الرواية ، رواية الكشف عن العالم ومجاهله ويغدو كأنه كتاب مقروء ، فلا يبقى فيه طِلّسم ولا لغز ، بل تُحَلّ كل طلاسمه وألغازه . وحسبنا الآن أن نَعْرِض ما كان للعرب فى هذا الميدان من جَوْلاتٍ ، لاشك أنها كانت المقدمات لهذه الانتصارات الباهرة على مجاهل الأرض والبحار ، وإن فيها لأنصعَ البينات على محبة العرب للمغامرات والمجازفات .

الفصل الأول

رحلات جغرافية

١

كتب الجغرافيا

اهتم العرب بوصف البلاد التى دخلت مع فتوحهم فى حوزتهم ، فتحدثوا عنها فى كتاباتهم التاريخية الأولى ، ودعاهم ما فى القرآن الكريم من إشارات إلى الأمم السابقة أن يطلعوا على ما عند أهل الكتب السماوية قبلهم من أخبارها ، وضمنوا ما عرفوا من ذلك تفاسيرهم لآى الذكر الحكيم . وبمجرد أن أخذوا فى العصر العباسى ينقلون ما عند الأجانب من معارف وعلوم نقلوا ما عرفه الفرس والهنود والإغريق عن العالم القديم ، وخاصة من الوجهة الجغرافية ، وكان فيما نقلوا جغرافية بطليموس .

ولا نصل إلى عصر المأمون بن هرون الرشيد حتى يبدأ تأسيس علم الجغرافية العربية ، فتوضع خريطة للعالم على أساس خريطة بطليموس . ثم يأخذ العرب فى التأليف الجغرافى ، فيصفون دولتهم الكبيرة التى امتدت من الهند وحدود الصين إلى أسبانيا وجبال البرانس ، ومن القوقاز وآسيا الصغرى إلى السودان ومجاهل إفريقية ، كما يصفون الإمبراطوريات والشعوب المجاورة لهم ، وأمدهم ملاحوهم بمعارف كثيرة عن أمم المحيط الهندى وجزائره .

واتبع جغرافيوهم طريقة ممتعة فى وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم ، إذ عنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطباعها وما بديارها من آثار

وعجائب وقصّوا ما عندها من أساطير وخُرافات . وبذلك أصبحت كتبهم الجغرافية كتباً أدبية ، تعتمد على المشاهدة وحكاية ما رآه الجغرافى تحت عينه وسمعه بأذنه ، وهى من هذه الناحية أقرب إلى أن تكون كتب رحلات منها إلى أن تكون كتباً جغرافية بالمعنى الذى نفهمه اليوم .

وكانت الدولة تحتاج من جهة الخراج والإدارة إلى معرفة المسالك فى البر لتنظيم البريد والاتصال بالبلاد المختلفة ، فعنى الجغرافيون بهذا الجانب ، وزاد فى عنايتهم به حاجة الحُجاج إلى معرفة محطات القوافل فى طريقهم إلى مكة . ومن هنا سمّوا كثيراً من كتبهم باسم «المسالك والممالك» ، ومن هنا أيضاً كانت كتبهم شعبية ، فهى كتب تقدّم إلى الشعب لا إلى الدولة والطبقة المثقفة الممتازة فحسب ، ولذلك يغلب عليها الطابع القصصى ، ونجد لذة فى قراءتها ، إذ نتنقل بين أخبار جغرافية وتاريخية وقصصية ومشاهدات يرويها الجغرافيون عن أنفسهم أو عن الرحّالين وما أبصروا فى الممالك القريبة والبعيدة . وسنقف وقفات قصيرة عند طائفة من هذه الكتب الطريفة .

٢

المسالك والممالك لابن حَوْقل

ابن حوقل من جغرافيي القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) نشأ فى بغداد ، وقرأ ما سبقه وعاصره من كتب جغرافية ، وشغف بهذا العلم ، فصمم على أن يضع فيه كتاباً لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأه ، وإنما يأخذه عن عينه ومشاهداته فى العالم الإسلامى ، فطاف بهذا العالم ثلاثين سنة ، ثم وضع كتابه . وتصادف أن تشيّع ، وكانت مصر يحكمها الفاطميون ، فتحول

داعياً لهم ، واتجه بكتابه « المسالك والممالك» هذه الوجهة السياسية . ويتضح ذلك فى حديثه عن البلاد التى كان يهم الفاطميين أن يستولوا عليها مثل الأندلس وصقلية ، ويجرى حديثه عن الأولى على هذا النحو :

« الأندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحلة ، ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر ، والرخص والسعة فى الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر إلى أسباب التملك الفاشية فى أكثرهم ، ولما هُمْ به من رغد العيش وسعته وكثرته ، يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم ، لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ، ويسار ملكهم وقلة شغله وسقوط تكلفه بشىء يحذره وحال يخافه ، إذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته ، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله . ومما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضريبتها فى كل سنة مائتا ألف دينار . . . هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالى والرسوم على بيوع الأسواق . ومن أعاجيب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنداد والأبطال » .

وواضح أنه يشير إلى غناها وخصب أراضيها وعظم جباياتها ، كما يشير إلى ضعفها الحربى وأن من السهل أن يفتحها الفاطميون ، فتتحول هذه الديار إلى ملكهم وتلك الأموال إلى خزائنهم . وكان يحكم الأندلس إذ ذاك دولة بنى أمية التى أسسها بها عبد الرحمن الداخل ، وفى عاصمتهم قرطبة يقول :

« وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة ، وليس بجميع المغرب عندى لها شبيه فى كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة

حمامات وفنادق ... وهى مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ... ولها بابان مُشْرَعان فى نفس السور إلى الطريق الآخذ على الوادى من الرصافة ، والرصافة مساكن أعالى البلد ، متصلة بأسافله من رَبضه ، مشتبكة أبنيتها محيطة بها مستديرة عليها من شرقها وشمالها وغربها ... والأسواق والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بربَضها ، ومسجد جامعها جليل والحَبْس منه قريب . وقرطبة هذه بائنة بنفسها عن مساكن أرباضها ظاهرة ، ودرْتُ بها فى غير يوم فى قدر ساعة ... وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك وابتذال لجيد الثياب والكُسَى وفواهة الكراع (الخيل) وكثرة الحلى ، وإن لم يكن لها فى عيون كثير من الناس حسن بارع ، فليس لجيوشهم حلاوة فى العين ولا علم بآيين (قوانين) الفروسية وقوانينها ولا بالشجاعة وطرقها . وأكثر ظفر جيوشهم فى القتال بالكيد . ومما يدل على ذلك أنى لم أر قط بها أحداً أجرَى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه فى الركب ، ولا يستطيعون ذلك ولا بلغنى عن أحدهم ، وكل ذلك لخوفهم من السقوط ، إلى فشل فيهم عند لقائهم ... »

وقد عاد ابن حوقل إلى رمى الأندلسيين بالضعف فى الحرب ونقص استعدادهم فيها ليزين للفاطميين فتح هذه البلاد . ولا يهمنا ذلك الآن ، إنما تهمنا طريقته فى الوصف الجغرافى ، فهو يقف ليعطينا معلومات طريفة عن البلدان وهى معلومات رحالة يصف ما يشاهده وصفاً دقيقاً ، ينقل إلينا فيه البلدة التى يصفها بكل ما فيها من أبنية وأسواق وحمامات ومساجد ومطاعم وملابس وعادات . ومما يقوله فى « بلرم » عاصمة صقلية وكان من بها من المسلمين لا يدينون بالولاء للفاطميين ، فذمهم ، وشنع عليهم :

« أكثر مياه البلد من الآبار ، وهى ثقيلة غير مروية ، وإنما صرفهم إلى شربها رغبةٌ عن شرب الماء الجارى العذب (الذى يجرى حول بلدتهم)

قلةُ مروءاتهم وكثرة أكلهم البصل وفساد حواسهم لكثرة تغذيهم بالنبيء منه، وما فيهم من لا يأكله فى كل يوم . . . وفيها أزيد من ثلاثمائة معلم يؤدّبون الصبيان . وهم (أهل بلرم) يرون أنهم أفضلهم وأجلهم ، وأنهم أهل الله وهم شهودهم وأمناؤهم ، هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم . . . وإنما لجئوا إلى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد ونكولا عن الحرب . . . »

وبهذه الطريقة أطلعنا ابن حوقل على حياة أهل البلدان التى وصفها بجانب ما تحدث عنه من المسالك ، فكتابه ليس كتاب سرْد جغرافى ، وإنما هو رحلة كبيرة فى العالم الإسلامى ، رحلة جغرافية بديعة .

٣

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر ، من بيت المقدس بفلسطين ، وإليه ينسب ، وهو فى رأى بعض المستشرقين أعظم الجغرافيين عند العرب فى جميع عصورهم . عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وجذبته الكتابة فى الجغرافيا ، فضرب فى العالم الإسلامى وتنقل فى ربوعه ، ثم أخذ يدون هذا الكتاب «أحسن التقاسيم» مصوراً أحواله الجغرافية والعمرانية ، مهتماً اهتماماً شديداً بالحديث عن «اختلاف أهل البلدان (الإسلامية) فى كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم وإليهم . . . ومعادن السعة والخصب ، ومواضع الضيق والجدب ، والمشاهد والمراصد والخصائص والرسوم (الصفات والطبائع) والممالك والحدود» . يقول :

« ما تمّ لى جمع الكتاب إلا بعد جولاتى فى البلدان ودخولى أقاليم الإسلام ولقائى العلماء وخدمتى الملوك ومجالستى القضاة ودرسى على الفقهاء ، واختلافى إلى الأدباء والقراء وكَتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين وحضور مجالس القصّاص والمذكرين ، مع لزوم التجارة فى كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد ، والتفطن فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى عرفتها ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ، ودورانى على التخوم حتى حرّرتها ، وتنقلى إلى الأجناد حتى عرفتها ، وتفتيشى عن المذاهب حتى علمتها ، وتفطنى فى الألسن والألوان حتى رتبتها ، وتدبرى فى الكُوَر (المديريات) حتى فصّلتها ، وبحثى عن الأخرجة (الضرائب) حتى أحصيتها . مع ذوق الهواء ، ووزن الماء ، وشدة العناء » .

وهذا الكلام الذى نقلناه عن مقدمته لكتابه يدل أبلغ الدلالة على مدى جهده فى الدراسة ، فقد عانى فى جمع مادة كتابه ، وتناول فيه أحوال كل بلدة وأهلها من طبائع وعادات حتى فى لغاتهم . والكتاب بذلك يعد طُرْفة حقيقية ففيه مادة غنية عن سكان كل بلدة وما يمتازون به فى طعامهم وثيابهم وعباداتهم ونُسكهم ، وهو يتحول إلى ما يشبه شريطاً سينمائيا ، فيعرض علينا سكان العالم الإسلامى بكل خصائصهم وصفاتهم ، ولخص هذه الصفات والخصائص فى أوائل كتابه ، فقال :

« أظرف الأقاليم العراق ، وهو أخف على القلب وأحدّ للذهن ، وبه تكون النفس أطيب والخاطر أدق . وأجلها وأوسعها فواكه وأكثرها علماء وأجلّة المشرقُ (الدولة السامانية فى خراسان) وأكثرها صوفاً وقزّاً الديلم (جرجان وطبرستان) وأجودها ألباناً وأعسالا وألذها أخباراً وأمكنها زعفراناً الجبالُ (أعالى إيران) وأكثرها ثماراً وأرخصها أسعاراً ولحوماً وأثقلها قوماً الرحاب ، وأسفلها قوماً وأشرهم أصلا وفصلا خوزستان ، وأحلاها تمُوراً وأوطأها قوماً كرْمان ، وأكثرها أرزاً ومسكاً وكافوراً السند ، وأكيسها قوماً وتجاراً وأكثرها فسقاً فارس ،

وأشدها حرّا وقحطاً ونخيلا جزيرة العرب ، وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً مشاهد الشام ، وأكثرها عباداً وقراءً وأموالا ومتجراً وخصائص وحبوباً مصر . . وأجفاها وأثقلها . . . وأكثرها مدناً وأوسعها أرضاً المغرب »

وظل على هذا النحو يعدد أوصاف كل بلدة ، ثم أخذ فى ذكر أقاليم العالم الإسلامى ، وبدأ بجزيرة العرب ، فتكلم عن مسالكها وبلدانها بلداً بلداً ، ومما قاله فى مكة :

« مكة هى مصرُ هذا الإقليم قد خُطّت حول الكعبة فى شِعْب واد ... بناؤها حجارة سُود مُلْس وبيض أيضاً ، وعلْوها الآجر ، كثيرة الأجنحة من خشب الساج ، وهى طبقات مبيضة نظيفة ، حارة فى الصيف إلا أن ليلها طيب ، قد رفع الله عنهم مئونة الدفء ، وأراحهم من كلف الاصطلاء . وكلٌ مانزل عن المسجد الحرام يسمونه المَسْفَلة ، وما ارتفع عنه المَعْلاة ، وعرضها سعة الوادى ، والمسجد فى ثلثى البلد إلى المَسْفلة ، والكعبة فى وسطه ، وفيه طول . وباب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة ، عليه مصراعان ملبّسان بصفائح الفضة ، قد طليت بالذهب قبال المشرق . طول المسجد ثلاثمائة ذراع ، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعاً ، وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعاً وشبراً فى ثلاثة وعشرين ذراعاً وشبراً » .

ويُفيض فى الحديث عن المسجد وخطّط مكة والمشاعر المختلفة من مثل منى والمزدلفة والطرق المفضية إليها من جميع الآفاق . ويتحدث عن بلاد العرب غير مكة ، ثم يعقد فصلا على عادته فى كل إقليم يتكلم فيه عن خصائص هذه البلاد فى جوها وفى خصبها وجدبها وفى المذاهب الدينية المنتشرة بها والتجارات التى تشيع فيها . ويتحدث عن رسوم القوم فى ثيابهم وطباعهم وأخلاقهم وكيف يحتفلون برمضان وأعيادهم ، وهو فى كل ذلك يأتى بالطريف من الخبر . وإذا استوفى الحديث عن بلاد العرب خرج إلى إقليم العراق فإقليم الشام ،

فإقليم مصر ، فإقليم المغرب ، ثم انتقل إلى أقاليم العجم ، وهو فى كل إقليم يتحدث عن بلاده بلداً بلداً وطباع أهله ومطاعمهم وملابسهم وتجاراتهم وحرفهم وما يؤدون من الضرائب ، ويفرد فصولاً واسعة لما يراه من مشاهد وآثار ، ومما جاء فيه عن عجائب إقليم مصر :

« فيه عجائب منها الهرمان اللذان هما أحد عجائب الدنيا من حجارة ، شبه عماريتين (هودجين) ارتفاع كل واحدة أربعمائة ذراع فى عرض مثلها ، قد ملئت بكتابة يونانية (كذا) وفى داخلهما طريقان إلى أعلاهما ، وطريق تحت الأرض . . . وسمعت فيهما أشياء مختلفة ، فمنهم من قال هما طلسمان ، ومنهم من قال كانتا أهراء (مخازن) يوسف ، وقيل بل كانت قبورهم . . . ويقال مكتوب عليهما : إنى بنيتهما فمن كان يدعى قوة فى ملكه فليهدمهما ، فإن الهدم أيسر من البناء ، فأراد بعض الملوك هدمهما ، فإذا خراج مصر لا يقوم بهدمهما ، فتركهما . وهما أملسان . . . يريان من مسيرة يومين وثلث لا يصعد فوقهما إلا كل شاطر ، وحولهما أمثالهما عدة صغار ، وهذا يدل على أنها مقابر . . . وبعين شمس شبه منارتين طويلتين ، قطعة واحدة ، على رأسهما شبه حربة ، تسميان المسلتين . . . وقرأت فى كتب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح . وبالإسكندرية منارة قد أرسى أساسها فى شبه جزيرة صغيرة يدخل إليها فى طريق ضيقة بالصخر محكمة . . . والمنارة فى جزيرة ، وفيها ثلاثمائة بيت يصعد إلى بعضها الفارس بفرسه ، وإلى كلها بدليل . . . ويقال إنه كانت فيها مرآة يرى فيها كل مركب أقلع من سواحل البحر كلها . . . » .

وبتلك الصورة تختلط فى هذا الكتاب الجغرافيا بالأخبار وعجائب الآثار وأحوال الناس والعمران ، وكانت مخيلة المقدسى من المخيلات اللاقطة التى تلتقط كل ما تشاهده وتسجله مع التحقيق والتدقيق فى الرؤية وما ينقله عن الأفواه والشفاه .

٤

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدريسى

الإدريسى أبو عبد الله محمد أكبر جغرافيي بلاد المغرب والأندلس ، وهو من سلالة الرسول عليه السلام ومن بيت بنى حمود الذين تملكوا بعض بلدان الأندلس فى القرن الحادى عشر ، ولد فى سبتة سنة ٤٩٣هـ / ١٠٩٩ م وتعلم فى قرطبة ، ثم رحل فى البلاد : فى الأندلس والمغرب ومصر والشام وآسيا الصغرى ، وانتهى به المطاف إلى صقلية ، وكان قد احتلها النورمان وأزالوا منها حكم المسلمين ، إلا أنهم عاملوهم بالحسنى ، واشتهر بذلك أميرهم روجر الثانى الذى كان يعجب بالعرب وما أتقنوا من علوم ومعارف . واتصل الإدريسى بهذا الأمير فأعجب كل منهما بصاحبه ، وقد عرف فيه روجر قدرته البارعة على رسم الخرائط ومهارته فى علم الجغرافية ، فطلب إليه أن يؤلف فيها كتاباً له ، فلم يهجم على التأليف مباشرة ، بل أنفذ طائفة من الرحالة إلى بلدان متفرقة ليأتوه بالمعلومات ، فكتبوا له تقارير عما شاهدوه ، أضافها إلى ما شاهده بنفسه فى البلدان ، وجمع أكثر ما كُتب فى هذا العلم ، واتخذ من كل ذلك مادة لتأليف كتابه الذى سماه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » كما يسمى باسم كتاب روجر لأنه ألف من أجله ، وقد نقل إلى اللاتينية موجز له فى القرن السادس عشر . ومنذ هذا التاريخ يهتم بهذا الكتاب المستشرقون ، إذ يرون فى مؤلفه « إسطرابون » العرب وأكبر جغرافييهم على الإطلاق . ولم ينشر الكتاب إلى اليوم ، إنما نشرت قطع منه ، وفى دار الكتب المصرية منه نسخة مخطوطة .

وزوّد الإدريسى كتابه بإحدى وسبعين مصوّرا ، ولذلك يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى فى الجغرافية ، وهو يتبع الطريقة العربية ، طريقة العرض الجغرافى القائم على المشاهدة ، وتفصيل أحوال الأمم والسكان ، وبيان ما بكل بلدة من عجائب البنيان والآثار . ولا يقف بكتابه عند وصف العالم الإسلامى ، بل يضم إليه وصفاً دقيقاً للعالم المسيحى فى أوربة ، مفيداً من الرحّالة الذين وضعهم روجر تحت إمرته ، وقد أوفدهم إلى بلدان أوربة المختلفة ، ونقلوا إليه كثيرا من المعلومات عن فرنسا وإيطاليا وألمانيا وأواسط أوربة وشرقها . ومن أطرف ما جاء فيه حديثه عن المدن الأندلسية التى زارها من مثل طُلَيْطلة وفيها يقول :

« مدينة طليطلة من طَلَبيرة شرقاً ، وهى مدينة عظيمة القطر ، كثيرة البشَر حصينة الذات ، لها أسوار حسنة ، ولها قصبة فيها حصانة ومنعة . وهى أزلية من بناء العمالقة . وقليلا ما رُئى مثلها إتقاناً وشماخة بنيان . وهى عالية الذرَى ، حسنة البقعة ، زاكية الرقعة . وهى على ضفة النهر الكبير المسمى تاجُه ، ولها قنطرة من عجيب البنيان ، وهى قوس واحدة ، والماء يدخل تحت ذلك القوس كله بعنف وشدة جرْى . ومع آخر القنطرة ناعورة ، ارتفاعها فى الجو تسعون ذراعاً ، وهى تُصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، والماء يجرى على ظهرها ، فيدخل المدينة . ومدينة طليطلة كانت فى أيام الروم دار مملكتهم وموضع قصْدهم ، ووجد أهل الإسلام فيها عند افتتاح الأندلس ذخائر كادت تفوق الوصف كثْرة ، فمنها أنه وُجد بها سبعون تاجاً من الذهب مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد بها ألف سيف مجوهر ملكى ، ووجد بها من الدر والياقوت أكيال وأوساق (حمول) ووجد بها من أنواع آنية الذهب والفضة ما لا يحيط به تحصيل ، ووجد بها مائدة سليمان بن داود (كذا) وكانت فيما يذكر من زمردة ، وهذه المائدة اليوم فى مدينة رومة !

ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها ، وأنهار جارية مخترقة ، ودواليب دائرة وجنات يانعة وفواكه عديمة المثال ، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة تكنفها . »

وانتهى الإدريسى من تأليف هذا الكتاب سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م وتوفى روجر وخلفه غليوم الأول (١١٥٤ — ١١٦٦ م) وألف له كتاباً آخر فى الجغرافية سماه « روض الأنس ونزهة النفس » أو كتاب « المسالك والممالك» . وقد توفى الإدريسى سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م .

٥

آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى

عاش القزوينى فى القرن السابع الهجرى ، وتوفى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م واسمه زكريا بن محمد . ويدل لقبه على أنه من إقليم بحر قزوين شمالىّ إيران . وله كتابان أحدهما هذا الكتاب « آثار البلاد » فى الجغرافيا والثانى « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » فى الفلك والتاريخ الطبيعى . وكتابه الجغرافى من أطرف الكتب الجغرافية عند العرب ، وهو فيه لا يهتم بالمسالك ، إنما يهتم بأحوال البلاد والسكان ، مضيفاً كل ما يستطيع من طرفة نادرة وعجيبة خارقة . وقد قسم الكتاب إلى سبعة أقاليم ، تكلم فى كل إقليم عن بلاده مرتباً لها على حروف المعجم ، وهو لا يقف كما وقف المقدسى عند المملكة الإسلامية ، بل يضم كما ضم الإدريسى ذكر البلدان الأوربية ، ويجمع من هنا وهناك غرائب كثيرة عن العالم فى أوربة وإفريقية وآسيا وبلادها البعيدة مثل الهند والصين ، ومما جاء فيه من عجائب الأخيرة :

« الهيكل المدوّر ، وله سبعة أبواب ، فى داخله قبة عظيمة البنيان عالية السَّمْك، وفى أعلى القبة شبه جوهرة كرأس عجل ، يضيىء منها جميع أقطار الهيكل ، وإن جمعا من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فما تمكنوا من ذلك ، فمن دنا منها قدر عشرة أذرع خَرَّ ميتاً ، وإن حاول أخذها بشيء من الآلات الطوال ، فإذا انتهى إليها انعكست ، وكذلك إن رمى إليها شيئاً ، وإن تعرض أحد لهدم الهيكل مات ، وفى هذا الهيكل بئر واسعة الرأس من أكبَّ عليها وقع فى قعرها ، وعلى رأس البئر شبه طوق ، مكتوب عليه : هذه البئر مخزن الكتب التى هى تاريخ الدنيا وعلوم السماء والأرض وما كان فيها وما يكون ، وفيها خزائن الأرض ، لكن لا يصل إليها إلا من وازن علمه علمنا ، والأرض التى عليها هذا الهيكل أرض حجرية عالية كجبل شامخ لا يرام قلعه ولا يتأتى نقبه . وإذا رأى الناظر إلى ذلك الهيكل والقبة والبئر وحسن بِنْيتها مال قلبه إليها وتأسف على فساد شيء منها . ومن عجائب الصين . . . طاحونة يدور حجرها التحتانى ، والفوقانى ساكن ، ويخرج من تحت الحجر دقيق لا نخالة فيه ونخالة لا دقيق فيها ، كل واحد منهما منفرد عن الآخر . وبها قرية عندها غدير فيه ماء ، فى كل سنة يجتمع أهل القرية ويلقون فرساً فى ذلك الغدير ، والناس يقفون على أطرافه كلما أراد الفرس الخروج من الماء منعوه ، وما دام الفرس فى الماء يأتيهم المطر ، فإذا أمطروا قدر كفايتهم وامتلأ الغدير أخرجوا الفرس وذبحوه على قُلَّة جبل وتركوه حتى يأكله الطير ، فإن لم يفعلوا ذلك فى سنة من السنين لم يمطَروا . . . ولأهل الصين يد باسطة فى الصناعات الدقيقة ، ولا يستحسنون شيئاً من صناعات غيرهم ، وأى شيء رأوا أخذوا عليه عيباً ، ويقولون : أهل الدنيا ما عدانا عمى إلا أهل كابل فإنهم عور ، وبالغوا فى تدقيق صَنعة النقوش ، حتى إنهم يصورون الإنسان الضاحك والباكى ، ويفصلون بين ضحك السرور

والحجالة والشماتة ، وإذا أراد ملكهم شيئاً من المتاع يعرضه على أرباب الخبرة ، ولا يتركه فى خزائنه إلا إذا وافقوا على جودته . وحكى أن صانعاً اتخذ ثوباً ديباجاً عليه صورة سنابل وقعت عليها العصافير ، فعرضه الملك على أرباب الخبرة واستحسنوه ، إلا صانعاً واحداً ، قال : العصافير إذا وقعت على السنابل أمالتها ، وهذا المصور عملها قائمة لا ميل فيها ، فصدقه الحاضرون وعجبوا من دقة نظره فى الصنعة . ومن خواص بلاد الصين أنه قلما يُرَى بها ذو عاهة كالأعمى والزَّمن (ذى العاهة) ونحوهما وأن الهرّة لا تلد بها . وقال محمد ابن أبى عبد الله : رأيت بالصين إنساناً يصيح صياح القردة ، وله وبر كوبر القرد ويداه تنالان ساقيه إذا بسطهما قائماً ويكون على الأشجار ، يثب من شجرة إلى شجرة ، وبينهما عشرة أذرع . وبالصين دابة المسك ، وهى دابة تخرج من الماء فى كل سنة فى وقت معلوم ، ويُصْطاد منه شىء كثير ، وهو شديد الشبه بالظباء ، فيذبح ويؤخذ الدم من سرته ، وهو المسك ، ولا رائحة له هناك حتى يحمل إلى غيرها من الأماكن . . »

وواضح أن فى الحديث عن هذه العجائب بعض المبالغات ، مما يجعل طائفة منها أقرب إلى الخرافة ، ولكنها مع ذلك لها طرافتها ، إذ أراد بها إلى القصص ، ونحن لا نقرأ فيها حتى نذكر كتاب ألف ليلة وليلة وما به من عجائب عن عالمى الجن والإنس . وكأن الجغرافيين أرادوا إرضاء حاسة الخيال عند قرائهم ، وكلما كان الإقليم أبعد تمادوا فى المبالغة ، حتى ليروون أن للنساء جزيرة خاصة بهن ، ويقول فيها القزوينى :

« فى بحر الصين جزيرة فيها نساء لا رجال معهن أصلا ، وإنهن يلقحن من الريح ويَلِدْنَ النساء مثلهن ، وقيل إنهن يلقحن من ثمرة شجرة عندهن يأكلن منها ، فيلقحن ويلدن نساء . حكى بعض التجار أن الريح ألقته إلى هذه الجزيرة ، قال : فرأيت نساء لا رجال معهن ، ورأيت الذهب فى

هذه الجزيرة مثل التراب ، ورأيت من الذهب قضباناً كالخيزران ! فهممن بقتلى ، فحمتنى امرأة منهن ، وحملتنى على لوح وسيّبننى فى البحر ، فألقتنى الريح إلى بلاد الصين ، فأخبرت صاحب الصين بحال الجزيرة وما فيها من الذهب ، فبعث من يأتيه بخبرها ، فذهبوا ثلاث سنين وما وقعوا بها ، فرجعوا » .

وبجانب هذه الأقاصيص نجده يقص عن البلاد الإسلامية كثيراً من الحكايات عن الزهاد والصالحين ، كما يتعرض لكثير من أخبار التاريخ والملوك السابقين . ومن طريف ما يرويه عن بَلْخ وهى إحدى بلاد خراسان حكايات عن زاهدها إبراهيم بن أدهم المتصوف المشهور ، يقول :

« ينسب إليها من المشاهير إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، كان من ملوك بلخ ، وكان سبب تركه الدنيا أنه كان فى بعض متصيّداته يركض خلف الصيد ليرميه ، فالتفت الصيد إليه ، وقال : لغير هذا خلقت يا إبراهيم ؛ فرجع ومر على بعض رُعاته ونزل عن دابته وخلع ثيابه ، وأعطاها للراعى ، ولبس ثياب الراعى واختار الزهد . وحُكى أنه ركب سفينته فى بعض أسفاره ، فلما توغل فى البحر طالبه الملاح بالأجرة وألحّ عليه ، فقال له إبراهيم : أخرجنى إلى هذه الجزيرة حتى أؤدى أجرتك فأخرجه إليها وذهب معه ، فصلى إبراهيم ركعتين ، وقال : إلهى يطلب أجرة السفينة ، فسمع قائلا يقول : خذ يا إبراهيم ، فمدّ يده نحو السماء وأخذ دينارين دفعهما إلى الملاّح ، وقال : لا تذكر هذا لأحد ، ورجعا إلى السفينة ، فهبت ريح عاصف واضطربت السفينة وأشرفت على الهلاك ، فقال الملاح : اذهبوا إلى هذا الشيخ ليدعو الله ، فذهب القوم إليه ، وهو مشغول بنفسه فى زاوية ، فقالوا إن السفينة أشرفت على الهلاك ، ادْعُ الله لعله يرحمنا ، فنظر إبراهيم بموق عينيه نحو السماء وقال : يا مرسل الرياح مُنّ علينا بالنجاح ، فسكنت الريح فى الحال . وحكى أنه مرّ به بعض رُعاته من بلخ ، فرآه جالساً على طرف ماء يرقّع

ثوبه ، فجلس إليه يعيره بترك الملك واختيار الفقر ، فرمى إبراهيم إبرته فى الماء ، وقال : رُدّوا إلىّ إبرتى ، فأخرج سمك كثير من الماء رءوسه ، وفى فم كل واحدة إبرة من الذهب ! فقال : لست أريد غير إبرتى ، فأخرجت واحدة رأسها بإبرته ، فقال للرجل : أى الملكين خير هذا أم ذاك . . . وحكى أن إبراهيم كان ناطوراً (حارساً) فى بستان بأجرة ، فإذا هو نائم وحيّة تروّحه بطاقة نرجس . وجاءه رجل جندى يطلب منه شيئاً من الثمرة ، وهو يقول : أنا ناطور ما أمرنى صاحب البستان ببذل شىء منها ، فجعل الجندى يضربه ، وهو يقول : اضربْ على رأسٍ طالما عصى الله تعالى . توفى سنة ١٦١ هـ . »

وعلى هذا النحو يجمع الكتاب خوارق النسّاك والمتصوفة بجانب خوارق البنيان والآثار ، ومن حين إلى حين نلتقى بغرائب الأخبار لا فى الإنسان ، بل أيضا فى الطير والحيوان البرى والبحرى والزواحف ، وهم يكثرون من الحديث عن التنّين وهو ضرب من الحيات العظيمة ، ومن عجيب ما ذكره القزوينى عن حلب :

« أنه ظهر بها سنة أربع وعشرين وستمائة تنين بغلظ منارة وطول مفرط ، ينساب على الأرض ، يبلع كل حيوان يجده ، ويُخرج من فمه ناراً تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات ، واجتاز على بيوت أحرقها ، والناس يهربون منه يميناً ويساراً ، حتى انساب قدر اثنى عشر فرسخاً ، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت وتدلت إليه ، فاحتملته ، وكان قد لفّ ذنبه فى كلب ، فرفع الكلب وهو يعوى فى الهواء ، والسحاب يمشى به والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين . . »

وطبيعى أن تكون هذه القصة التى حكاها القزوينى عن بعض الناس هناك ملفقة ، فهى أدنى إلى الخرافة ، وبمثلها كانت تروج هذه الكتب

الجغرافية فى الناس ، إذ يجدون فيها مسلاة لهم . ودائماً نلتقى عند القزوينى يمثل هذا التخريف الطريف .

ولا بد أن نشير هنا إلى كثرة الكتب التى ألفت فى العصور الوسطى على هذا الطراز ، وربما كان أقربها إلى الواقع « معجم البلدان » لياقوت الحموى الذى ألفه سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م ورتب البلدان فيه على حروف الهجاء ، ولذلك سماه معجماً ، وهو يعرض علينا فى كل بلدة أوصافها الجغرافية وأحوالها العمرانية ، وقد يعرض لشىء من تاريخها ، وربما أفاض فى ذلك . ويذكر من نبغوا فيها بمختلف العلوم والآداب . وقد تنقل فى كثير من البلاد وجمع من مشاهداته ومن الكتب السابقة له مادة وفيرة ، جعلت كتابه أغنى كتب البلدان معارف وأخباراً ، وكان ناقداً متثبتاً ، فلم يفتح فى كتابه باب الخرافة والأساطير على مصراعيه كما صنع القزوينى .

ووراء هذه الكتب التى وصفناها كتب جغرافية كثيرة تذهب مذهبها من مزج المعلومات الخاصة بوصف الأرض بمعلومات كثيرة تاريخية وعمرانية ، مع ذكر العجائب فى البنيان والحيوان والطير ، فى عالمى البر والبحر . ومن أشهرها « كتاب البلدان » لليعقوبى و « الأعلاق النفيسة » لابن رسته و « البلدان » لابن الفقيه و « تقويم البلدان » لأبى الفداء .

وأفردت كتب للعجائب التى ساقها الجغرافيون والمؤرخون ، ودارت فى الأوساط الشعبية ، ومن أشهرها « خريدة العجائب » لابن الوردى و « نُخْبة الدهر فى عجائب البر والبحر » للدمشقى و « مختصر العجائب » لابن وصيف شاه ، وجميعها تلبِّى رغبة الشعب فى قراءة الخوارق والعجائب .

الفصل الثانى

رحلات بحرية

١

فى عالم البحر

سلكت الأمم القديمة فى آسيا وإفريقية وأوربة البحارَ التى تحيط بها ، وحملت فيها تجاراتها وبعض جيوشها للفتح والغزو ، ولكنها لم تذهب بعيداً فى المحيطات ، وكان العرب يسمون المحيط الأطلسى ببحر الظلمات رمزاً لما يكتنف داخله من مجهولات مظلمة ، وكذلك كان شأن المحيطين الهندى والهادى .

وبمجرد أن أسَّسَ العرب دولتهم أخذوا يتصلون بالبحار القديمة مثل البحر الأحمر وبحر الروم أو البحر الأبيض المتوسط ، وكان لهم فى الأخير أساطيل تحمى ثغورهم ، وأخذت قوافل التجار تعبره كما أخذت تعبر البحر الأحمر أو بحر القلزم ، وكان فَتْحهم للهند فى عصر مبكر سبباً فى أن يقتحم تجارهم المحيط الذى يدور حولها ، بل لقد أخذوا يقتحمون بحر الصين أو المحيط الهادى .

وكانوا يسقطون إلى الجنوب فيصلون إلى جزائر الهند الشرقية ، وكانوا يسمونها « واق الواق » ويُظَنّ أنهم إنما أطلقوا هذا الاسم على الجزائر اليابانية ، وكأنما وصلوا إلى هذه الجزائر أيضاً . وقد عرفوا مدغشقر ونزلوا بإفريقية الشرقية فى الصومال وجنوبىّ الصومال .

وكانوا يحملون من هذه البلاد والجزائر المختلفة أنواعاً لا حصر لها من عُروض

التجارة ، مما تحصيه لنا اليوم كتب الجغرافيا عن غلّات تلك الجزائر والبلدان . ولسنا بصدد أن نتحدث هنا حديثاً جغرافيا ، إنما يهمنا رحلات القوم البحرية ، وما ساقوا فى وصف رحلاتهم من كتب تحدثت عن عجائب البحار . وأكثر ما دونوا من هذه الكتب كان فى المحيط الهندى والهادى على سواحل الصين ، إذ كانت القوافل ذاهبة آيبة من البصرة وعدن وعمان إلى الهند والصين وما يجاورهما من جزائر ومدغشقر وإفريقية وما بها من زنج وغير زنج .

وكانت الرحلة فى البحر حينئذ تعد متعة حقيقية ، لما تحمل للملاحين والمسافرين من مفاجآت فى رؤية شعوب غريبة وبلاد عجيبة ، بالإضافة إلى ما يحمله الماء نفسه من أسماك وحيوانات بحرية كبيرة وطيور مختلفة ألوانها وحُجُومها . وكان الخوف يلعب بخيال الراحلين فيصور لهم كثيراً من الأوهام حقائق ، ويجسم لهم بعض الحقائق الصغيرة أشياء مفزعة خطيرة . وفى كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى صور كثيرة من ذلك كحديثهم عن طائر العنقاء والرّخ والحيوان البحرى المسمى بالوال وبعض الحيوانات البرية التى رأوها بالجزائر مثل الكركدّن الذى شاهدوه فى جزيرة الرامنى ولعلها سومطرة ، واستقصَوا فى الحديث عن اللآلئ وأصداف البحار ، ويختلط فى كل ذلك الواقع بالأسطورة ، والحقيقة بالخيال .

واهتمت كتبهم الجغرافية بالحديث عن البحار التى عرفوها والجزائر والبلدان النائية التى رادوها ، وعنى منذ أول الأمر جماعة من الملاحين والرحالين بحكاية ما شاهدوه فى بعض أسفارهم وما اطلعوا عليه من عجائب وغرائب . ودخلت مادةُ ذلك فى عالم القصص على نحو ما نجد فى قصص السندباد البحرى المشهورة فى ألف ليلة وليلة . ونعرض هنا لأهم رحلاتهم التى دونوها فى كتبهم .

٢

رحلة التاجر سليمان

كان سليمان من تجار العراق الذين ينقلون عُروض الهند والصين إلى البلاد العربية ، وكانت طريقه إلى ذلك المحيط الهندى ، فالمحيط الهادى ، وعنى بوصف هذه الطريق وما شاهده فيها من جزائر وغيرها ، فكتب هذه الرحلة التى تعد أقدم ما تحت أيدينا من رحلات العرب البحرية ، فإنه ألفها سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م . ولم تصلنا فى كتاب مستقل، إنما وصلتنا فى كتاب لعراقى عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) يسمى أبا زيد السِّيرافى ، وقد ذَيَّل على رحلة سليمان بطائفة من الأخبار عن أهل الهند والصين ، جمعها من أقوال الرحالة. ونشر الرحلة وذَيْلَها بعض المستشرقين باسم «سلسلة التواريخ » .

ولكى نفهم الرحلة لابد أن نعرف أسماء البحار التى كانوا يطلقونها على ما بطريقهم من مياه إلى ميناء خانفو فى الصين ، فقد كانوا يسمون الخليج الفارسى باسم بحر فارس ، ويليه بحر لارْوى وهو الجزء من المحيط الهندى جنوبى إيران وشرقى الهند ، فبحر الهرْكَنْد ، وهو جزء المحيط بين جزيرة سرنديب وخليج بنغالة ، فبحر كَلاه أو شِلاهطْ المحاذى لجزيرة مَلقا وجزائر الهند الشرقية أو الزابَج ، فبحر كُنْدُرَنْج المحاذى لسيام ، فبحر الصَّنْف الماسّ للهند الصينية ، فبحر صَنْخَىْ المحاذى للصين ، وعليه تقع خانفو ثغر الصين وهدف ملاحى العرب وتجارهم ، وفيه إلى الشرق جزائر واق الواق ولعلها جزائر اليابان .

ويبدأ سليمان رحلته بوصف بحر لارْوى ، ويذكر أن به سمكة اصطادوها ،

فكان طولها عشرين ذراعاً وهى سمكة الوال ، ويقص أن به سمكة يحكى وجهها وجه الإنسان وتطير فوق الماء ، وسمكة أخرى كبيرة تبتلع صغار السمك ، وتسقط فى جوفها وكأنما تسقط فى بئر عميقة .

وينتقل إلى بحر الهرْكَنْد، فيذكر أن به ألفا وتسعمائة جزيرة وتملكها جميعها امرأة . وبهذه الجزائر عنبر عظيم القدر، وهو ينبت فى قاع البحر، وإذا اشتد هيجانه لَفَظه، فيجمعه الناس، وبها نخل النارجيل (شجر جوز الهند) وَوَدْعٌ كثير وهو مالهم وتدخره ملكتهم . وآخر هذه الجزائر سرنديب، وبها مغاص اللؤلؤ، وفى أرضها جبل يُدْعَى الرهون ، وعليه هبط آدم عليه السلام! وحول هذا الجبل معدن الجوهر : الياقوت الأحمر والأصفر والأسمانجونى وفى هذه الجزيرة ملكان ، وهى جزيرة عظيمة عريضة ، فيها العود والذهب والجوهر وفى بحرها السمك .

وفى هذا البحر إذا رُكب من سرنديب جزائر ليست بالكثيرة غير أنها واسعة ، منها جزيرة يقال لها الرامنى (لعلها سومطرة) فيها عدة ملوك وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ ، وفيها معادن الذهب ، ومعادن تدعى فَنْصور، يكون الكافور الجيد منها. وتلى هذه الجزيرة جزيرة يقال لها النِّيان، وبها ذهب كثير ويأكل أهلها النارجيل وبه يتأدَّمون ويَدَّهنون، وإذا أراد أحد منهم أن يتزوج لم يزوجوه إلا برأس رجل من أعدائهم فإذا قتل اثنين زُوِّج اثنتين ، وكذلك إن قتل خمسين زوجوه خمسين امرأة وإنما يصنعون ذلك لكثرة أعدائهم .

ويلى هذه الجزائر السابقة جزائر تسمى لَنْجَبَالوس ، وفيها خلق كثير عُراة رجالا ونساء ، غير أن النساء يسترن عوراتهن بورق من الشجر . وإذا مرت بهم مراكب جاءوا إليها فى قوارب صغيرة وكبيرة ، وبادلوا من يركبونها العنبر والنارجيل بالحديد . ومن وراء هؤلاء الناس جزيرتان بينهما بحر

يقال له أنْدَمان ، وأهلهما يأكلون الناس أحياء ، وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين، طوال الأرجل، قَدَمُ أحدهم مثل الذراع ، عراة ، ليست لهم قوارب ، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مرّ بهم .

ويذكر سليمان أنه ربما رُؤى بهذا البحر سحاب أبيض يتدلى منه لسان طويل رقيق حتى يمس ماء البحر ، فيغلى وتدور به زوبعة لا تأتى على مركب إلا ابتلعتها . ويقول إن بهذه البحار رياحا عاصفة، كثيراً ما تهيج فتحطم السفن تحطيما ، ويزعم أن هناك سمكاً يدعى اللخم ، وهو سبع يبتلع الناس .

ويصل بنا إلى خانفو ، ويقص أن بها جالية كبيرة من المسلمين وأن بها شيخاً يولّيه صاحب الصين الحكم على المسلمين ، الذين يقصدون إلى ذلك المرفأ ، وإذا أهلّ العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطانهم العباسى ، وقال إن تجار العراق لا ينكرون شيئاً من أحكامه وأنه يحكم بكتاب الله وما شرعه الإسلام .

ويعود سليمان فيتحدث عن الثغور والمواضع التى تمر بها السفن من حين إقلاعها من البصرة أو من ثغر سيراف إلى بحر كَلاه المسامت لشبه جزيرة ملقا ، ولباس أهلها الفُوَط . ثم تخطو السفن إلى بحر كندرنج فبحر الصنف ، وهو بحر الهند الصينية ، ومنها كانوا يجلبون العود الصنْفى ، وتتقدم السفن إلى بحر صَنْخَىْ وهو بحر الصين حيث مرفأ خانفو .

ويتكلم بعد ذلك سليمان عن بلاد الهند والصين وملوكهما ويسوق طائفة من الأخبار الطريفة تارة عن الملوك وتارة عن أحوال الناس وطباعهم وحياتهم الاجتماعية ومعاملاتهم وإدارة حكوماتهم ودياناتهم وما يعبدون من الأوثان والأصنام . ويقف كثيراً ليقارن بين أهل الهند والصين، فمن ذلك قوله :

« أهل الصين أهل ملاه وأهل الهند يعيبون الملاهى ولا يتخذونها ولا يشربون الشراب ولا يأكلون الخلّ لأنه من الشراب ، وليس ذلك ديناً ولكنه أنفة ،

ويقولون أى ملك شرب الشراب فليس بملك ، وذلك أن حولهم ملوكاً يقاتلونهم فيقولون كيف يدبّر أمر ملكه من هو سكران ؟ . . . وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم ، ثم تهادوا ، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول ، وهديتهم من المال على قدر الإمكان ... و [جزاء] السَّرَق فى جميع بلاد الصين والهند ، فى القليل منه والكثير القتل . وحيطان أهل الصين الخشب وبناء أهل الهند حجارة وجصّ وآجرّ وطين ، وربما كان ذلك بالصين أيضاً . وليس الصين ولا الهند بأصحاب فرُش ، ويتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء . وطعام الهند الأرز وطعام الصين الحنطة والأرز ، وأهل الهند لا يأكلون الحنطة . وأهل الصين يعبدون الأصنام ويصلّون لها ، ويتضرعون إليها ، ولهم كتب دين . والهند يطيلون لحاهم ، ربما رأيت لحية أحدهم ثلاثة أذرع ولا يأخذون شواربهم ، وأكثر أهل الصين لا لحى لهم خلقةً لأكثرهم . وأهل الصين والهند يزعمون أن البدّدة (الأصنام) تكلمهم وإنما يكلمهم عُبّادهم . والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه ، فيضربون هامته حتى يموت . وللهند خيل قليل وهى للصين أكثر ، وليس للصين فيَلة ، ولا يتركونها فى بلادهم تشاؤما بها . وبلاد الصين أصحّ وأقل أمراضاً وأطيب هواء لا يكاد يُرَى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة . وأنهار البلدين جميعاً عظام ، فيها ما هو أعظم من أنهارنا ، والأمطار بالبلدين جميعاً كثيرة . وأهل الصين أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب فى اللباس والدواب ، وهم فى هيئتهم وفى مواكبهم يشبهون العرب ، يلبسون الأقبية والمناطق ، وأهل الهند يلبسون فوطتين ويتحلّون بأسورة من الذهب أو الجوهر . . »

وعلى هذا النحو نقرأ عند التاجر سليمان وصفاً طريفاً للبحار السبعة التى كانت تجتازها السفن إلى الصين كما نقرأ عنده أخباراً كثيرة عن حياة الناس فى الصين والهند ، وقد تنبه فى الأولى إلى شراب الشاى المعروف ، ولم يكن

العرب قد عرفوه بعد، فقال: إن عند أهل الصين حشيشاً يشربونه بالماء الحارّ ويقال له السَّاخ وهو أكثر ورقاً من الرُّطَبة وأطيب قليلا، وفيه مرارة، ويُغْلَى الماء ويُذَرّ عليه منه، وهو ينفعهم من كل شيء.

٣

عجائب الهند برّه وبحره وجزائره لبزُرْك بن شَهْرِيار النَّاخُدَاه.

نشر بعض المستشرقين هذا الكتاب فى ليدن سنة ١٨٨٦، ومؤلفه كما يدل عليه لقبه «الناخداه» كان رُبَّاناً يحترف ملاحة السفن، وتدل حكاياته التى يرويها فى الكتاب أنه كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وهى حكايات يرويها عن بعض الملاحين الذين جابوا المحيط الهندى والهادى، وفيها ما يدل على أن الكتاب زيدت فيه أقاصيص عن عصور متأخرة عن عصر المؤلف، وكأنما أُعْجب القصاص والرواة بالكتاب، فزادوا فيه على نحو ما كانوا يزيدون فى كتب القصص مثل ألف ليلة وليلة. وبذلك أصبح هذا الكتاب قصة مَلاَّحي العرب فوق مَتْن المحيطين الهندى والهادى على توالى العصور وما شاهدوا فيهما من عجائب الملاحة وغرائب العواصف، وما أبصروه من حيوانات وأسماك بحرية وطيور ونسور مائية. ونحن لا نكاد نمضى فيه حتى نقرأ هذا الخبر عن سمكة من نوع الوال.

«فى سنة ثلاثمائة وقعت سمكة ببعض سواحل عُمان، وجزّر الماء عنها، فصيدت وسُحبت إلى البلد... وحضر الناس للنظر إليها، وكان الفارس يدخل من فَكّها ويخرج من الجانب الآخر، وهو راكب، لعظمها، فإنها ذُرعت، فكان طولها زيادة على مائتى ذراع، وارتفاعها نحو خمسين ذراعاً، وبيع

من دُهْن عينيها على ما قيل ببضع عشرة آلاف درهم ... وهذا السمك كثير ببحر الزّنْج ، ويقال له الوال ، وهو بكسر المراكب مولع ، فإذا تعرض للمركب ضربوا الخشب بعضه ببعض ، وصاحوا وضربوا الطبول ، وإنه ربما نفخ الماء ، فيرتفع مثل المنار ويتبين من بعد مثل شراع المراكب ، وربما لعب بذنبه وأجنحته ، فيُرَى من بعد أيضاً مثل شراع القوارب » .

ويستمر فى قصص عن بعض الحيوانات البحرية ، ثم يروى لنا هذا الوصف الطريف لعاصفة ألمت ببعض الملاحين فى بحر الملاتو بالقرب من الصين ، إذ ضلت بهم سفينتهم وكادوا يموتون غرقاً ، لولا أن امتدت إليهم يد الرحمة من السماء ، فأنقذتهم بعد جهد جهيد ، يقول :

« سافر رجل فى مركب له عظيم ، ومعه فيه خلق من أخلاط التجار من كل بلد ، وهم يسيرون فى بحر ملاتو وقد قربوا من أطراف أرض الصين ، وأبصروا بعض جبالها ، فلم يشعروا إلا وريح قد خرجت عليهم من الجهة التى يقصدونها ، فلم يسعهم إلا الانصراف معها حيث توجهت ، وركبهم من هول البحر ما لا طاقة لهم به ، ومرت بهم الريح إلى سَمْت سُهَيْل (نجم) . ومن اضطُرَّ فى ذلك البحر إلى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقد دخل بحراً لا رجعة له منه ، وتنكّس فى لجة هابطة إلى الجنوب تصوّبه إلى تلك الجهة ، فكلما مرت المركب علا ماوراءها من جهتها ، وهبط ما بين يديها من تلك الجهة ، فلا تستطيع الرجوع بريح عاصف ولا غيره ، وهوتْ فى لجج البحار المحيطة ، فلما رأوا أمرهم يؤدى إلى الدخول تحت سُهَيْل ودخل عليهم الليل وأظلم وادلهمّ ، وحال بُخار البحر ودُجُنَّته ونداه وزَخره (ارتفاع مياهه) بينهم وبين النَّجاة ، فلم يروا ما يهتدون به ، وهول البحر وأمواجه ترفعهم إلى السحاب ، وتخفضهم إلى التراب ، وهم يجرون فى قار وضباب طول ليلهم . وأُصْبِح عليهم ، فلم يشعروا بالصباح لشدة ظلمة ما هم فيه ، واتصال قار البحر

مع ضباب الجو وغِلَظِ الريح وكدورته . فلما طال عليهم الليل وهم يجرون فى قبضة الهلكة ، قد حَكَّمَ عليهم الريح العاصفة والبحار الزاخرة والأمواج الهائلة ، ومركبهم يَئِطّ (يصوِّت) ويئن ويتقعقع ويتتعتع توادعوا ، وصلى كل منهم إلى جهة على قدر معبوده ، لأنهم كانوا شيعاً من أهل الصين والهند والعجم والجزائر ، واستسلموا للموت . وجرَوا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيها بين الليل والنهار . فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل رأوا بين أيديهم ناراً عظيمة قد أضاءت الأفق فخافوا خوفاً شديداً ، وفزعوا إلى رُبّانهم ، وقالوا له : يا رُبّان ما ترى هذه النار الهائلة التى ملأت الآفاق ، ونحن نجرى إلى سمتها ، وقد أحاطت بالأفق ، والغرق أحب إلينا من الحريق ، فبحق معبودك إلا قلبتَ بنا المركب فى هذه اللجة والظلمة ، لا يرى أحد منا الآخر ، ولا يدرى ما كانت ميتته ، ولا يتجرع لوعة صاحبه ، وأنت فى حِلٍ وبِلٍّ مما يجرى علينا ، فقد متنا فى هذه الأيام والليالى ألف ألف ميتة ، فميتة واحدة أرْوَحُ ، فقال لهم : اعلموا أنه قد يجرى على المسافرين والتجار أهوال ، هذا أسهلها وأرحمها ، ونحن معشر الربابنة علينا العهود والمواثيق أن لا نعرض سفينة إلى العطب وهى باقية لم يَجْرِ عليها قدَر ، ونحن معشر ربابنة السفن لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها ، فنعيش بسلامتها ونموت بعطبها ، فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذى يصرّفهما كيفَ يشاء . فلما أيسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل ، وندب كل منهم شجوه — وصار الربان إذا أمر مناديه أن ينادى رجاله بجذب حبل أو إرخائه ليصلح شأن المركب لا تسمع الرجال ذلك من دوىّ البحر وحِسِّ تلاطم الأمواج وهدير الرياح فى القلوع والشُّرُع والحبال وضجيج الخلائق . فأشرف المركب على التلف . . . وكان فى المركب شيخ مسلم من أهل قادس من الأندلس قد طلع إلى المركب فى ازدحام الناس عند طلوعهم ليلة السفر ، ولم يشعر به رُبان المركب ، وكان فى زاوية من المركب مهجورة ، وهو مختف فيها ، خوفاً

أن يُعْلَمَ به فيؤنّب ويوبّخ ، فلما رأى القومَ وما نزل بالناس وما هم عليه من الإخطار بأنفسهم ومركبهم ، وأنهم قد صاروا عوناً مع أهوال البحار على أنفسهم مسرعين لهلاكهم رأى أن يخرج إليهم ، فيكون من حاله معهم ما كان ، فخرج إليهم وقال لهم : ما شأنكم ، أنفتح المركب ؟ قالوا لا ، قال فانكسر السُّكّان ؟ قالوا لا ، قال فركبكم البحر ؟ قالوا لا ، قال فما بشأنكم ؟ قالوا له كأنك لستَ معنا فى المركب ، أما تنظر هول هذا البحر وأمواجه وظلمة الهواء الذى لم نر معه نهاراً ولا شمساً ولا قمراً ولا نجوماً نهتدى بها ، وقد دخلنا تحت سُهيل ، وحكمت البحار والرياح علينا ؟ وأشدّ ما علينا هذه النار التى نحن نجرى إليها ، وقد ملأت الأفق ، والغرق أهون علينا من الحريق ، وقد سألنا الربّان أن يقلب المركب بنا فى البحر والظلمة ، لا يرى واحدٌ منا إلى صاحبه ، ونموت غرقاً ولا نموت حرقاً يرى بعضنا بعضاً ونسمع ما تفعل النار فيه ، فقال : أوصلونى إلى الربان ، فأطلعوه إليه ، فسلّم عليه بالهندية ، فرد عليه وتعجب منه ونظر إليه ، وقال له : من أنت من التجار أم من أتباعهم ، فلا نعرفك فى رجال المركب ؟ قال له ما أنا من التجار ولا من أتباعهم ، قال فمن أطلعك ؟ وما بضاعتك ؟ قال له أما من أطلعنى فإنى طلعت فى جمهور الناس ليلة الإسراء (السفر) وأويتُ إلى مكان فى المركب ، قال : من أين تأكل ومن أين تشرب ؟ قال كان يوضع كل يوم قريباً منى صحفة أرز بسمنٍ لملائكة المركب وماءٌ ، فكنت أتقوّت بذلك ، وأما بضاعتى فقرْبة عَجْوة ، قال : فتعجب الربان منه ، واشتغل الناس بسماع حديثه عما كانوا فيه من الضجيج . وأصلح الرجال أدوات المركب ، ومشى فيهم مناد بتدبير الأقلاع ، واهتدى المركب فقال الشيخ : يا رُبان ما لهؤلاء القوم كانوا يبكون ويُعْولون ؟ قال له : أما ترى ما نزل بهم من هول البحار والرياح والظلمة ، وأشد من ذلك ما نحن مدفوعون إليه من هذه النار التى ملأت الأفق ،

والله لقد ركبت هذا البحر وأنا دون البلوغ مع أبى ، وكان قد أذهب عمره فى ركوبه ، وها أنا اليوم قد رميت ثمانين سنة ورائى فما سمعت بمن سلك هذا المكان، ولا خَبَّر عنه ، فقال : يا رُبان لا بأس عليك ولا خوف ، نجوتم بقدرة الله ، هذه جزيرة يحيط بها ويكنفها جبال ، ينكسر عليها أمواج البحار المحيطة بالأرض فتنظَرُ فى الليل نار هائلة يخافها الجاهل ، فإذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماءً . . . فتباشر الناس وسكنوا إلى قول الشيخ وتناولوا طعامهم وشرابهم وذهب عنهم ما كانوا فيه من الغم والخوف ، وتناقص الريح ، وصار رَهْواً (سهلا) والريح رَخْواً وقدموا على الجزيرة مع شروق الشمس وأصحت السماء . . . وتخيروا مُرْسًى كَنينا (مستترا) ووردوا الجزيرة بجملتهم وكانوا يطرحون أرواحهم على الرمال ويتمرغون على الأرض شوقاً إليها ، ولم يبق منهم فى المركب أحد .)

وهذا تصوير رائع لعاصفة من العواصف التى كانت تلم ببعض السفن حين يسقطون من المحيط الهندى إلى المحيط الهادى ، فتدفعهم الريح من كل جانب ، وأخذهم الأهوال من كل فَجٍّ ، ويصبحون كأنهم معلقون على وجه الماء بيد الأقدار ، فإما إلى قاع البحر وإما إلى النجاة بأرواحهم . ونمضى مع بُزُرْك فنقرأ عجائب وغرائب كهذه الحكاية التى يحكيها عن بعض السلاحف الكبيرة التى يُظَنّ أحياناً أنها جزيرة فى وسط البحر ، وهى سلحفاة عائمة ، يقول :

« إنه سمع بعض شيوخ المراكب يحدّث أن مركباً خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحى فذهب من بد صاحبه بقوة الريح ، وعِيبَ المركب ، فقدموا إلى جزيرة صغيرة لم يجدوا فيها ماء ولا شجراً ، ودفعتهم الضرورة إلى المقام فيها ففرّغوا حمولة المركب إلى الجزيرة ، وأقاموا مدة ، حتى أصلحوا العيب ، وردوا الحملَ إلى المركب ، وعزموا على الخطوف (السير) فاتفق

لهم يوم نوروز (عيد الربيع) فجمعوا من خشيبات معهم وخوص وقماش وأوقدوه ، فتحركت الجزيرة من تحتهم ، وكانوا بقرب الماء ، فزموا أنفسهم إليه ، وتعلقوا بالقارب ، وغاصت الجزيرة ، فلحقهم من اضطراب البحر بحركتها ما أشرفوا بهعلى الغرق ، وسلموا بعد تعب شديدوهول عظيم ، وإذا بها سلحفاة قائمة على وجه الماء ، ولما أحست بحرِّ النار ولَذْعها هربت . وسألتُ عن السبب فى ذلك ، فقيل إن السلحفاة لها أيام فى كل عام تطفو فيها على وجه الماء على سبيل الاستراحة من طول مقامها فى كهوف الجبال ، وفى البحر غابات وأشجار هائلة أهول وأعظم من شجرنا فوق الأرض ، فتخرج على وجه الماء ، وتمكث أياماً وتسدَر (يغيب وعيها) كالسكران ، فإذا رجعت إليها نفسها وسئمت ما هى فيه غاصت . . . »

ويخرج من حديث السلاحف إلى أحاديث طويلة عن حيات الهند وغيرها وحيوانات البحر وما رأى الملاحون من غرائب الطير ، وأثناء ذلك يقص أخباراً عن بعض البلدان فى آسيا وإفريقية مما يلى البحار ، ويتحدث عن السكان وأوصافهم وعباداتهم ، كما يتحدث عن طُرَف البحر من اللآلىء وغير اللآلىء ، وما صاده الغواصة منها . ومن طريف ما يرويه خَبَرُ دُرَّةٍ تسمى الدرة اليتيمة ، بيعت لهارون الرشيد ، باعها له رجل من عُمان ، يقول :

« كان بعمان رجل يقال له مُسلم بن بشر ، وكان رجلا مستوراً جميل الطريقة ، وكان ممن يجهز الغواصة فى طلب اللؤلؤ ، وكانت بيده بضاعة ، فلم يزل يجهز الرجال للغوص ، ولا يرجع إليه فائدة ، حتى ذهب جميع ما كان يملكه ، ولم يبق له حيلة ولا ذخيرة ولا ثوب ولا شىء يجوز بيعه ، إلا خلخالا بمائة دينار لزوجته ، فقال لها : أقرضينى هذا الخلخال لأجهز به ، فلعلَّ الله تعالى يسهِّل شيئاً ، فقالت له : يا هذا الرجل لم تبق لنا ذخيرةٌ ولا شيئاً نعوِّل عليه ، وقد هلكنا وافتقرنا ، فلأن نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن

نُتلفه فى البحر ، فتلطف بها ، وأخذ الخلخال ، وصرفه ، وجهز بجميعه الرجال إلى الغوص وخرج معهم . ومن شرط الغوص أن يقيم الغواصة فيه شهرين لا غير ، وعلى هذا يتشارطون ، فأقاموا يغوصون تسعة وخمسين يوماً ويخرجون الصدف ، ويفتحونه ، فلا يحصل لهم شىء . فلما كان فى اليوم الستين غاصوا على اسم إبليس لعنه الله ، فوجدوا فيما أخرجوه صدفةً ، استخرجوا منها حَبَّة لها مقدار كبير ، لعل ثمنها يوفى بجميع ما كان يملكه مسلم منذ كان إلى وقته . فقالوا هذا وجدناه على اسم إبليس لعنه الله،فأخذها وسحقها ، ورمى بها فى البحر ، فقالوا له : يا هذا الرجل لمَ فعلت أنت هذا ؟ قد افتقرت وهلكت ولم يبق لك شىء يقع بيدك مثل هذه الحبَّة التى لعلها تساوى آلاف الدنانير ، فتسحقها ؟ ! فقال : سبحان الله كيف أستحل أن أنتفع بمال استُخرج على اسم إبليس وأنا أعلم أن الله تبارك وتعالى لا يبارك فيه ، وإنما وقعت هذه الحبة بأيدينا ليختبرنا الله بها ويعلم من يعرف خبرها اعتقادى،ولئن انتفعت بها ليقتدين كلٌ أحد بى ، فلا يغوصون إلا على اسم إبليس لعنه الله ، فإثم ذلك يعظم على كل فائدة وإن عظمت ، ووالله لو كان مكانها كل لؤلؤ فى البحر ما تلبَّسْتُ به ، امضوا فغوصوا وقولوا باسم الله وبركة الله . فغاصوا على ما رَسَم لهم ، فما صَلَّى صلاة المغرب من ذلك اليوم وهو آخر يوم من الستين حتى حصل بيده دُرَّتان ، إحداهما اليتيمة ، والأخرى دونها بكثير ، فحملهما إلى الرشيد ، وباع اليتيمة بسبعين ألف درهم والصغرى بثلاثين ألف درهم ، وانصرف إلى عُمان بمائة ألف ، فبنى بها داراً عظيمة ، واشترى ضياعاً واعتقر عَقاراً ، وداره معروفة بعُمان . »

والكتاب ملىء بحكايات عن أحوال الناس فى جزائر المحيط الهندى وعلى ضفافه فى الزنج وغير الزنج ، وهو فى أثناء هذه الحكايات يعطينا كل ما تختص به البلاد من عادات ، وقد أطال فى وصف عُبَّاد الهند وكهنتها

وبيوت عباداتها وسحرتها وثيابهم وتعاويذهم ، ومن طريف ما يقصه عن الفيلة هناك هذا الوصف الدقيق ، قال :

« أخبرني بعضهم أنه شاهد ببعض بلدان الهند فيلة تتصرف فى حوائج أربابها وأن الفيل يُدْفَعُ إليه الوعاء الذى يشترى فيه الحوائج ، وفيه الوَدَع وهو نقد القوم وأنموذج الحاجة كائناً ما كانت ، فيكون معه فى الوعاء شيء من ذلك الجنس والنقد ، ويمضى إلى البقال ، فإذا رآه البقال نزل من جميع شغله ولو كان على رأسه من يشترى منه كائناً من كان ، وأخذ الوعاء من الفيل فعدّ الودع الذى فيه ، ونظر ما يريد بأنموذج متاعه ، ودفع إليه أجود ما عنده من ذلك النوع بأرخص سعر ، ويستزيده فيزيده ، وربما عدّ البائع الودع ، فغلط فيه ، فيشوشه الفيل بخرطومه ، فيعدّ البقال عدة ثانية ، ويمضى الفيل بما اشتراه ، فربما استقلّه صاحبه ، فيضربه ، فيعود إلى البقال ، فيشوش متاعه ويخلط بعضه ببعض ، فإما أن يزيده أو يردّ عليه الودع . وإن الفيل الذى هذا صورته يكنس ويرشّ ويدق الأرز بمدقة ، يأخذها بخرطومه ، فيدق ، ورجل يجمع عليه الأرز ، حتى يطحنه . ويستقى الماء وذلك أنه يأخذ الوعاء الذى يستقى فيه الماء ،وفى الوعاء حبل مشدود يُدخل خرطومه فيه ويحمله . ويقضى جميع الحوائج ، ويركبه صاحبه فى حوائجه البعيدة . ويركبه الصبى ، ويمضى عليه إلى الصحراء ، فيقطع الحشيش وورق الشجر بخرطومه ، ويدفعه إلى الصبى ، فيجمعه فى وعاء معه ، ويحمله ، فيكون ذلك طعامه ، وإنه إذا كان على هذه الصفة يبلغ مالا عظيما ، وقيل عشرة آلاف درهم . »

ويتعرض لصناعات أهل الهند والصين ، وخاصة ما يتقنه الأخيرون من النقش والتصوير ، ومن الغرائب التى رواها عن إحكام الصينيين لصناعة الورود والرياحين فى نسيج بارع ما ضمنه هذه الحكاية عن بعض التجار قال :

« أدخلني باغ بور (ابن ماء السماء) ملك الصين إلى بستان بخانفو مقدار عشرين جريبا (مزرعة) فيه نرجس ومنثور وشقائق وورد وسائر الأنوار (الأزهار) فعجبت من اجتماع أنوار الصيف والشتاء فى وقت واحد فى بستان واحد ، فقال لى : كيف ترى ؟ فقلت ما رأيت حسنة إلا وهذا أحسن ولا طُرْفة إلا وهذا أطرف منها ، فقال لى : جميع ما ترى من الأشجار والأنوار معمولة من الحرير ، فتفقدته بعد أن قال لى هذا ، فوجدت الورق والأنوار من الحرير الصينى ، قد عُمل وضفِّر وحُبك ونسج وسُوِّى على هذه الصورة ومن رآه لم يشك فيه أنه شجر ونَوْر لا يغادر شيئاً . . . »

ويقص أحاديث طويلة عن طيور الجزائر الهندية وبلاد الزنج . ويختلط فى قصصه الخيال بالحقيقة ، على نحو ما نجد فى الخبر التالى ، إذ يقول :

« إن بسُفالة الزنج من الطيور ما يأخذ الوحش بمنقاره أو بمخالبه . ويحمله إلى الهواء ، ثم يرمى به ليموت وينكسر ، ثم ينزل عليه فيأكله ، ولقد سمعت أن فى بلاد الزنج طائراً ينقضّ على السلحفاة الكبيرة . فيخطفها ويرفعها إلى الجوّ ويرمى بها إلى الأرض على جبل أو صخرة ، فتنكسر ، فيسقط عليها فيأكلها ، ويأكل منها ، إذا وجد فى النهار ، الخمس والست ، وأن هذا الطائر إذا رأى الإنسان هرب منه ، وفرّ من صورته لبشاعة خلق الناس فى تلك الأرض » .

وطرافة هذا الخبر فى خاتمته وما تحمل من تهكم ، وكثير من القصص الذى مر وقصص الكتاب يتضمن مواعظ ومعانى إنسانية . ومن هنا تأتى طرافة هذا الكتاب وحكاياته البحرية ، وإنه ليسوق فيها كل ما يحمله البحر من أصداف وأسماك وحيوانات ، وكل ما تحمله بروره وشطآنه وجزائره من غرائب الإنسان والطير والحيوان من قرود وغير قرود .

٤

رحلة الفتية المغرّرين

رأينا الكتاب السابق يزخر بأخبار الملاحين والربابنة الذين جابوا المحيطين الهندى والهادى شرقى الصين . أما المحيط الأطلسى فإن العرب لم يلجّجوا فيه ، إذ كان بعيداً عنهم ، ومع ذلك يُظَنّ أن عرب الأندلس اقتحموا هذا المحيط ، وإن كانوا لم يتغلغلوا فيه ، بل إنه يوجد بين الباحثين من يظن أنهم وصلوا إلى أمريكا قبل كولومبوس .

وليس بين أيدينا ما يدل دلالة قاطعة على أن الأندلسيين قاموا بذلك فعلا ، على أنهم إن كانوا لم يقوموا به فإنهم هم الذين هيئوا له ، إذ قاموا برحلات مختلفة على الساحل الإفريقى الغربى ، وربما عرفوا جزائر أزورا وماديرا وكنارى .

وأمامنا من رحلاتهم فى هذا المحيط الذى كانوا يسمونه بحر الظلمات رحلة رواها الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » إذ روى أنه لا يزال معروفاً إلى عصره فى أشبونة (لشبونة) رحلة فتية غرروا بأنفسهم ، فركبوا البحر المظلم ، وظلوا فيه أشهراً ، ثم عادوا ، وكان ذلك فى القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادى) وكان لا يزال باسمهم إلى وقته دَرْبٌ فى مدينتهم سُمِّىَ باسمهم ، وهم ثمانية رجال كانوا أبناء عمومة ، أعدّوا مركباً كبيراً ، وزودوه بالماء والمتاع ، ثم دخلوا البحر مع هبوب الرياح الشرقية ، وأجروا فيه مركبهم نحو أحد عشر يوماً ، ولم يلبثوا أن انتهوا إلى بحر مجهول غليظ الموج كدر الروائح كثير الربوش (الأعشاب) والضباب ، فأيقنوا بالتلف ، وسارعوا إلى تغيير وجهتهم ،

فداروا إلى الجنوب ، وظلوا كذلك اثنى عشر يوماً ، حتى وقعوا إلى جزيرة كثيرة الغنم ، فرسَوا عليها ونزلوا بها ، ووجدوا بعض أشجار التين ، ومياهها جارية. ، فاطمأنوا إلى المكان ، وأخذوا شاة فذبحوها وأعدوها لطعامهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أكلها لمرارة لحمها ، فعادوا إلى سفينتهم ، وأقلعوا إلى الجنوب ، وساروا اثنى عشر يوماً فتراءت لهم جزيرة فيها عمارة وحَرْث ، فنزلوا بها ، ولم يلبثوا أن رأوا رجالا يحيطون بهم ، أجبروهم على التسليم ، وحملوهم معهم إلى مدينة رأوا بها رجالا شقراً ، شعورهم سَبْطة ، وهم طوال القدود لنسائهم جمال عجيب . واعتقلوهم فى دار ، ظلوا بها ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع دخل عليهم رجل يتكلم بلسانهم العربى ، فسألهم عن حالهم ، وغايتهم ، ومن أين جاءوا . فأخبروه بقصتهم ، فطمأنهم ووعدهم خيراً ، وقال لهم إنه ترجمان الملك وفى اليوم التالى أُخذوا إلى حضرة هذا الملك ، وسُئلوا عن وجهتهم ، فقالوا إنهم خرجوا فى البحر لرؤية عجائبه وخوارقه ، وليقفوا على نهايته .

وضحك الملك حين سمع منهم ذلك ، وقال لترجمانه : أخبرهم أن أبى أمر طائفة من عبيده أن يسيروا فى البحر ، ويحاولوا أن يعرفوا شيئاً عما فى داخله ، وأنهم ساروا فيه شهراً ، ثم عادوا بخُفَّىْ حنين ، وقال الملك لترجمانه سَكِّنْ جأشهم ، وعِدْهم خيراً . ثم أخذ بهم إلى معقلهم ، فظلوا فيه إلى أن نشطت الريح الغربية ، فأخرجوهم فى زورق بعد أن عصبوا أعينهم ، وجروا بهم فى البحر نحو ثلاثة أيام ، وأخيراً ألقوا بهم إلى شاطئ أرض لم يكونوا يعرفونها ، وتركوهم مكتَّفين ، يبكون مصيرهم .

وبينما هم فى ضنك وسوء حال إذ سمعوا ضوضاء وجلبة أناس ، فصاحوا بأجمعهم ، وسمعهم القوم ، فأقبلوا عليهم ، فوجدوهم على هذه الحال السيئة ، فحلوا عنهم وثاقهم ، وسألوهم عن شأنهم ، فأخبروهم قصتهم ، وكانوا من البربر ، فأعلموهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين . وبعد أهوال ومخاطرات

وصلوا إلى بلدهم ، فأطلق عليهم الناس اسم الفتية المغرّرين ، يقصدون أنه غُرِّرَ بهم فى مجازفات ومغامرات غير مجدية .

والمظنون أنهم وصلوا إلى بعض الجزائر فى المحيط الأطلسى ، ولعلهم وصلوا إلى جزائر أزورا وكنارى ، وقد دُفعوا إلى إفريقية ، حيث التقوا بطائفة من البربر ، ثم عادوا إلى ديارهم بعد أن ذاقوا وبال رحلتهم فى بحر الظلمات ، بحر الألغاز والطلاسم . ونظن ظنا أن رحلات أخرى قام بها الأندلسيون بعد ذلك فى هذا الاتجاه، ولكنها لم يكتب لها النجاح، شأنها شأن رحلة الفتية المغرَّرين ، وكأنما كان القدر يدّخر مفاجأة اكتشاف العالم الجديد لكولمبوس أعظم الرحالين والملاحين .

٥

عرائس البحر

تشترك الأمم القديمة فى أساطير بحرية، تجعل البحار غاصة بأحياء، صورتهم بين الإنس والحيوانات المائية ، وألّهتْ بعض الأمم هذه الصور الخيالية . ولما تحول الإنسان من حياته الوثنية إلى حياته الدينية السماوية رافقته أساطيره القديمة . وتمتزج هذه الأساطير عند العرب بأخبارهم فى مجاهل البحار وما يقصّونه عن هذه المجاهل ، بل إننا نجد أطرافاً منها منثورة فى كتب الجغرافيا مثل كتاب البلدان لابن الفقيه ، ففيه هذا الخبر عن الإسكندرية ، يقول :

« كانت الإسكندرية بيضاء تضىء بالليل والنهار ، وكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج منهم واحد من بيته ، ومَنْ خرج اختُطف ، وكان لهم راع

يرعى الغنم على شاطئ البحر ، وكان يخرج من البحر شيء فيأخذ من غنمه ، فكمن له الراعى فى بعض المواضع ، حتى خرج ، فإذا جارية ، فتشبّث بشعرها، ومنعته ، فذهب بها إلى منزله ، فأنست بهم، ورأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس ، فسألتهم عن ذلك ، فأخبروها أن من خرج فى ذلك الوقت اختُطف ، فعملت لهم الطلسمات ، وكانت أول من وضع الطلسمات بمصر » .

وفى كتابى القزوينى « آثار البلاد » و « عجائب المخلوقات » كثير من الأساطير التى تُرْوَى عن عرائس البحر ، ومما يقصه عن الهند بحيرةٌ يجرى وصفها فى كتابه « آثار البلاد » على هذا النحو :

« هى بحيرة مقدار عشرة فراسخ فى مثلها ، ماؤها ينبع من أسفلها ، لا يأتيها شيء من البحار ، وفى تلك البحيرة حيوانات على صورة الإنسان ، إذا كان الليل يخرج منها عدد كثير ، يلعبون على ساحل البحر ويرقصون ويصفقون باليدين ، وفيهم جوار حسناوات ، ويخرج منها أيضاً حيوانات على غير صورة الإنسان عجيبة الأشكال ، والناس فى الليلة القمراء يقعدون من بعيد وينظرون إليهم ، وكلما كان النظّار أكثر كان الخارجون أكثر ، وربما جاءوا بالفواكه الكثيرة ، وأكلوها ، وتركوا ما فضل منهم على الساحل .. »

وتتضخم أسطورة عرائس البحر عند القزوينى وغيره من الجغرافيين ، فيجعلون لها جزيرة خاصة بها فى أقصى المحيط الهندى أو لعلها فى المحيط الهادى ، وقد مر بنا وصف القزوينى لهذه الجزيرة فى كتابه « آثار البلاد » ويجعل بعض كُتّاب العرب هذه الجزيرة بين جزر واق الواق التى كانوا يقصون عنها أساطير كثيرة ، ويقدم لنا بُزُرك بن شهريار فى كتابه « عجائب الهند » تعليلا لاختصاص هذه الجزيرة بالنساء ، فيحكى عن إحداهن أنه كان قد تشبث بها بعض الملاحين ، ونقلها عن جزيرتها إلى البلاد العربية ، وأقامت المرأة معه وأسلمت ورُزق منها الأولاد ! فسألها عن تلك الجزيرة ،

والسبب الذى جعلهن ينفردن بها دون الرجال ، فقالت :

« نحن أهل بلادواسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة ، ومسافة ما بين كل بلد من جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها ، وكل من فى أقاليمنا ومدننا من الملوك والرعايا يعبدون النار التى تظهر لهم فى جزيرتنا ، ويسمونها بيت الشمس ، لأن الشمس تشرق من طرفها الشرقى وتغرب فى جانبها الغربى فيظنون أنها تبيت فى هذه الجزيرة . . . فيعبدونها ويقصدونها بصلاتهم وسجودهم من سائر الجهات . ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل المرأة فى بلدنا تلد أول بطن ذكراً ، وثانى بطن أنثيين ، وكذلك باقى عمرها ، فما أقل الرجال فى بلادنا وأكثر النسوان ! . فلما كثرن وأردن أن يغلبن على الرجال ، صنعوا لهن المراكب وحملوا منهن آلافاً ، وطرحوهن فى هذه الجزيرة ، ويقولون للشمس : يا ربهن أنت أحق بما خلقت ، وليس لنا بهن طاقة . . . وإن بلادنا فى البحر الأعظم تحت سُهيل لا يقدر أحد أن يجىء إلينا . . . خوفاً من أن تشربه البحار ، وذلك تقدير العزيز العليم ، تبارك الله أحسن الخالقين »

والنساء نساء حقيقية فى هذه القصة ، ولكن بجانب هذه القصة فى « عجائب الهند » قصة أخرى تعود بهن إلى عالم الماء ، وتسمى جزائرهن جزائر الحوت ، فقد حدَّث بعض الملاَّحين عن أبيه ، قال :

« أسريتُ فى مركب لى كبير ، ونحن طالبون جزيرة قنْصور . . . وأدخلنا التيار بين جزائر ، فأسندنا المركب إلى واحدة منهن على ساحلها نسوة يعمن ويسبحن ويلعبن ، فأنسنا بهن ، ولما قربنا منهن تهاربْن فى الجزيرة » .

وتمضى الحكاية فتزعم أن هذا الملاح ومن معه من التجار بادلوا أهل الجزيرة عروضهم من الحديد والنحاس والكحل والخرز والثياب بما عندهن من الأرز والغنم والدجاج والعسل والسمن ، ثم طلبوا بضائع منهن يشترونها ، فقلْنَ ليس عندنا إلا الرقيق ، فاشتروا طائفة كبيرة ، ولكن لم يكادوا يمضون

فى البحر حتى تطاير هذا الرقيق تطاير الجراد والمركب تجرى فى موج كالجبال ، وكانت لا تزال بين القوم جارية فى قاع السفينة ، فأمسك بها الملاح وأقعدها وأقامت معه ثمانى عشرة سنة مقيدة ، واستولدها ستة أولاد . كان منهم راوى القصة ! ويزعم أنه مات أبوه ففكوا عن أمهم قيودها رحمة بها وإبراراً لها وحنوا عليها ، يقول :

« فخرجت كأنها الفرس السابق، وانطلقنا خلفها، فلم ندركها ، وقال لها بعض من قرب منها : تمضين وتخلّين أولادك وبناتك ، فقالت : ما أعمل لهم ، وطرحت نفسها فى البحر ، وغاصت كأقوى حُوت يكون، سبحان الخالق البارئ المصور . »

وعلى هذا النحو نجد عند العرب أساطير بحرية تشبه من بعض الوجوه الأساطير التى كانت معروفة عند اليونان القدماء ، فكثيراً ما آمنوا بأن بطلا من الأبطال ولدته الآلهة التى تحيط بجزيرتهم وترفرف فوق مياهها ، وقد أشار هوميروس فى قصته «الأوديسة» إلى ساحرات يسمين «سيرينا» يُقمن بأعلى الصخور فى بعض الجزائر ويغنين غناء رائعاً ساحراً ، ويسمعهن البحارة ، فيذهلون عن سفنهم ، ويتركونها تجرى مع الرياح إلى أن ترتطم ببعض الصخور ، وتتحطم تحطما . حينئذ يثوبون إلى رشدهم ويعرفون أنهم وقعوا فى حبال مكْر هؤلاء الساحرات وكَيْدهن ، وكان كيداً عظيما !

الفصل الثالث

رحلات فى الأمم والبلدان

١

رحلات مبكرة

لعل أول رحلة فى تاريخ العرب الإسلامى هى رحلة فتوحاتهم الكبرى ، فقد خرجوا من جزيرتهم ، وطافوا بأركان العالم الوسيط فى آسيا وإفريقية ، وجابوا البحر ، ودخلوا الأندلس ، واقتحموا جبال البرانس وتصايحوا بلغتهم وصلاتهم وأذانهم على الأبواب الجنوبية الغربية لفرنسا ، ونزلوا صقلية وحولوها إلى سلطانهم . وكانت للعلاقات التجارية قائمة بين البلدان التى فتحوها وبين الأمم والممالك المختلفة فى آسيا وأوربة . وظلت هذه العلاقات ، وقامت معها علاقات سياسية ، ورغبات مختلفة فى نفوس الأفراد للضرب فى مجاهل الأرض واكتشاف ما وراء العالم الإسلامى من أمم وشعوب وأحوال عمران . وكان للتجار اليد الطولى فى هذا الارتياد يبتغون الرزق فى مناكب الأرض وأقاليمها البعيدة .

وفى أخبار رحلاتهم البحرية السابقة ما يدل على أنهم طافوا حول شواطئ إفريقية الشرقية ، وكادوا لا يتركون جزيرة فى المحيط الهندى إلا نزلوها واتجروا فيها ، وبلغوا بتجارتهم سواحل المحيط الهادى ونزلوا ببعض جزائره ، كما نزلوا فى الصين . وهم كذلك نزلوا فى الجزائر المنتشرة ببحر الروم ، وبعض جزائر المحيط الأطلسى من مثل جزائر كنارى .

وإذا كانوا قد اقتحموا البحار من حولهم ، فإنهم اقتحموا الأرض المعروفة

لهم، فجابوا أواسط إفريقية وتوغلوا فى مجاهلها ، ووضعوا أقدامهم فى أوربة ومرتفعاتها الشرقية والجنوبية وتوغلوا فيها ، كما توغلوا فى آسيا وصحاريها ومرتفعاتها الوسطى، وَطَوَّفوا بالهند وصحراء جوبى ومروج منغوليا إلى الصين .

ولم يدوِّن العرب أخبار الرحَّالة الأوائل،ولكنا لا نصل إلى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) ونقرأ كتبهم الجغرافية والتاريخية حتى نجدهم قد عرفوا معرفة دقيقة أخبار الأمم من حولهم ، مما يدل على كثرة الراحلين والسائحين . ومن أقدم من يذكرونهم فى هذا الباب سلام الترجمان الذى يقال إن الخليفة الواثق (٨٤٢ — ٨٤٧ م) أرسله فى بعثة إلى بلاد الصين ليشاهد السدّ الذى بناه الإسكندر فى ديار يأجوج ومأجوج . وعادت البعثة نقص على الناس أخبار الصين وعجائبها . ومن هؤلاء الرحالة ابن وهب القرشى الذى يقال إنه استطاع لقاء ملك الصين وعرض عليه الملك صوراً للأنبياء ، ومن بينها صورة للرسول صلى الله عليه وسلم . ويقال إن هذه الرحلة كانت فى سنة ٨٧٠ م. وهذان الرحَّالتان إنما هما رمز لكثيرين وراءهما طوفوا فى آسيا وإفريقية ، يتجرون فى العروض وفى الرقيق . وإذا كان العرب قد نشروا الإسلام عن طريق السيف فى إيران والهند وشمالى إفريقية فإن التجار من ورائهم نشروه فى أقاليم لم يصل إليها الفاتحون فى آسيا كالصين وفى إفريقية كالسودان وعلى طول شاطئها الشرقى . وكثيراً ما كانت هذه الأقاليم الجديدة تطلب بعثات دينية من بغداد، تعلم الناس فروض الإسلام وما شرعه الله لمصلحتهم فى دنياهم وآخرتهم .

ومن أقدم هذه البعثات بعثة طلبها ملك البلغار من الخليفة المقتدر ، وكان كثير من البلغار قد دخلوا فى الإسلام ، وكانوا يقيمون حينئذ فى حوض نهر الڤولجا، أو كما يسميه العرب نهر أتلا . وأرسل الخليفة المقتدر سنة ٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م بعثة جعل رياستها لابن فضلان . وقام بمهمته خير قيام ، ثم

عاد بعد مدة إلى بغداد ، فوضع كتاباً فى وصف رحلته إلى القوم ، وألم إلماماً دقيقاً بأحوالهم وعاداتهم وبكل ما بديارهم من مظاهر الحضارة والعمران ، ولم يصف شعب البلغار وحده ، بل وصف أيضاً الخزر والروس . ونشر هذا الكتاب أو هذه الرسالة بعض المستشرقين فى القرن الماضى ، ومما جاء فيها عن الروس :

« رأيت الروسية وقد وافوا بتجاراتهم ، فنزلوا على نهر أتلا ، ولم أر أتم أبداناً منهم ، كأنهم النخل ، شقر حُمر ، لا يلبسون القراطق (القمصان) ولا الخفاتين (ضرب من الثياب) ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شِقّيه ، ويخرج إحدى يديه منه ، ومع كل واحد فأس وسكّين وسيف . . . وكل امرأة منهم على ثديها حق مشدود من حديد أو من نحاس أو من فضة أو من ذهب على قدر حال زوجها »

وعرض لكثير من أحوالهم التى تدل على تأخرهم ، ووقف طويلا عند وصف حَرْقهم لموتاهم ، واحتفالاتهم لحرق رؤسائهم ، وما يصنعون فى ذلك من رسوم غريبة .

وهذه الرحلة أيضاً إنما هى رمز لرحلات العرب فى أوربة . ونحن لا نقرأ ما كتبه المسعودى فى مروج الذهب ، وقد عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) حتى نؤمن بأن العرب قد توغلوا فى كل الأقاليم من حولهم ، فعرفوا جغرافيتها وتاريخها وأحوال سكانها معرفة دقيقة . ومن هذه المعرفة ملأ المسعودى كتابه المذكور وكتبه الأخرى الكثيرة بأخبار الأمم الأجنبية والإسلامية ، وكان هو الآخر رحّالة ، جاب المحيط الهندى وشواطئه فى إفريقيا وجزائره الكثيرة ، وزار الهند وبلاد الصين وبحر قزوين وآسيا الصغرى والشام ومصر وبلاد العرب . وتختلط فى كتاباته مشاهداته بتلك البلدان بمشاهدات غيره من الرحالة والسائحين .

٢

أبو حامد الأندلسى فى شرق أوربة

أحد الرحالة الأندلسيين ، عاش أكثر حياته فى القرن السادس الهجرى (٤٧٤ — ٥٦٤ هـ / ١٠٨٠ — ١١٦٩ م) وشغف بالرحلة ، فطاف بإفريقية الشمالية وصقلية ، وزار مصر والشام والعراق ، وتحول إلى ناحية البحر الأسود (بحر الخزر) وتوغل فى بلاد البلغار على ضفاف نهر الڤولجا وبلاد الصقالبة وإقليم باشغرد الواقع بين البلغار والقسطنطينية . وسجل مشاهداته فى هذه الأقاليم والبلدان بكتابه « تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب » وله كتاب آخر يسمى « المعرب فى عجائب المغرب » .

ونشر بعض المستشرقين ما شاهده فى شرق أوربة ، وقد روى كثيراً من الأخبار عن الأقاليم الممتدة شمالى البلغار إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وهو يسميها « ويسوا » و « يورا » . وكان الإسلام ينتشر فى البلغار ، وقال إن سبب انتشاره هناك أن مسلماً متطبباً دخل هناك ، وكان الملك وزوجه مريضين قد يئس من شفائهما ، فعرض عليهما الإسلام إن هو شفاهما من مرضهما ، فأجاباه : نعم ، فعالجهما ودخلا فى دين الإسلام ، وأسلم معهما أهل تلك البلاد . وكان البلغار حينئذ ينزلون فى أواسط حوض الڤولجا ، وكان لهم مدينة تسمى باسمهم ، وقال أبو حامد إن طول النهار يبلغ عندهم عشرين ساعة فى الصيف وليلهم يبقى أربع ساعات ، وفى الشتاء ينعكس ذلك ، والبرد عندهم شديد جدا . والحر فى الصيف كذلك شديد ، أشد مما يكون فى كل الدنيا . ونحن نسوق طائفة من الأخبار التى رواها عن البلغار

وعما فوقهم من بلاد ويسوا ويورا ، وما يحاذيهم من بلاد الصقالبة ، قال :

« ويوجد ، فى أرض البلغار من عظام قوم عاد ، السنّ الواحد عرضه شبران وطوله أربعة أشبار ، ومن رأسه إلى منكبه خمسة أبواع ، ورأسه مثل القبة العظيمة ، وهو هناك كثير . وتوجد تحت الأرض أنياب الفيلة و (الناب) أبيض كالثلج ، ثقيل كالرصاص ، الواحد مائتا مَنّ (المن نحو رطلين) وأكثر وأقل ، لا يُدْرَى من أى حيوان هو ، يُقْطَعُ ويحمل إلى خوارزم وخراسان ، وتتخذ منه الأمشاط والحِقاق وغير ذلك كما يتخذ من العاج ، وهو أقوى من العاج لا ينكسر .

وفوق هذه الولاية أمم لا عدد لهم يعطون الجزية لملك بلغار . . . ولهم ولاية تؤدى الخراج بينهم وبينها مسيرة شهر ، يقال لها «ويسوا» وولاية أخرى يقال لها « يورا » فيها يصطاد القندز والقاقم والسنجاب الجيد . والنهار يكون هنالك فى الصيف اثنتين وعشرين ساعة . ومنهم تجىء جلود القندز الجيد الفائق . والقندز : حيوان عجيب يكون فى الأنهار العظام ويتخذ بيوتاً فى البر إلى جانب النهر .

يقول : ووراء ويسوا ولاية تعرف بيورا على بحر الظلمات يكون النهار عندهم فى الصيف طويلا جداً ، حتى إن التجار يقولون إن الشمس لا تغيب مقدار أربعين يوماً ، وفى الشتاء أيضاً يكون الليل طويلا مثل ذلك . والناس يحملون من بلاد الإسلام سيوفاً تُتَّخَذُ فى زنجان وأبْهر وتبريز وأصفهان ، ولا يتخذون لها آلة ولا حلية إلا حديداً كما يخرج من النار . . . وذلك السيف هو الذى يصلح أن يحمل إلى يورا . وأهل يورا ليس عندهم دواب ولا مواش إلا أشجاراً عظيمة وغياضاً يكثر فيها العسل ، ويكثر عندهم السَّمُّور جدا ، ويأكلون لحمه . والتجار يحملون إليهم هذه السيوف وعظام البقر وعظام الغنم ، ويأخذون أثمانها جلود السَّمُّور ، ولهم فى ذلك ربح كثير . والطريق

إليهم فى أرض لا يفارقها الثلج أبداً . ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها ، طول كل لوح باع ، وعرضه شبر ، مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض ، وفى وسط اللوح موضع يضع الماشى فيه رجله ، وفيه ثقب قد شَدّوا فيه سيوراً من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ، ويَقْرِن [الرجل] بين اللوحين اللذين يكونان فى رجله بشندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه فى يده الشمال ، وفى يده اليمنى عصاً بطول الرجل . وفى أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة . ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج ، ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح فى السفينة . فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحداً أن يمشى هناك البتة ، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد ، وأى حيوان مشى عليه يغوص فيه فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب فإنها تمشى عليه بخفة وبسرعة . والثعالب والأرانب فى تلك البلاد تبيضّ جلودها ، حتى تكون مثل القطن ، وكذلك الذئاب أيضاً تكون فى ناحية بلغار تبيض جلودها فى زمن الشتاء .

وتلك السيوف (يقصد السيوف التى تصنع فى بلاد الإسلام بدون نصاب ولا حلية) تُحمَل من بلاد الإسلام إلى بلغار ، وفيها ربح كثير ، ثم يحملها البلغاريون إلى«ويسوا» موضع القندز ، ثم أهل ويسوا يحملونها إلى«يورا» يشترونها بجلود السمور وبالجوارى والغلمان . ثم كل آدمى يكون هناك يحتاج كل سنة إلى سيف يلقيه فى بحر الظلمات . فإذا ألقوا السيوف أخرج الله لهم من البحر سمكة مثل الجبل العظيم تطردها سمكة أخرى أكبر منها أضعافاً مضاعفة ، تريد أكلها ، فتفرّ الصغرى من الكبرى ، فتقرب من البر وتصير فى موضع لا يمكنها الرجوع [منه] إلى البحر ، فتبقى هناك ، وترجع الكبرى إلى البحر ، ويدخل أهل يورا إلى البحر فى السفن ويقطعون من جوانبها ، وليس عند

السمكة من ذلك حس ولا تتحرك ، فيملئون بيوتهم من لحمها ويصعدون على ظهرها وهى كالجبل العظيم. » ويروى أبو حامد هذه الأسطورة :

« ولقد حُدِّثتُ ببلغار أن سمكة من تلك السمك فى بعض السنين ثقبوا أذنها ، وجعلوا فيه حبالا ، وجرّوا تلك السمكة ، فانفتح أذنها ، وخرج من داخلها جارية تشبه الآدمية ، بيضاء حمراء الخدين ، سوداء الشعر ، من أحسن النساء ، فأخذها أهل يورا وأخرجوها إلى البر ، وتلك الصورة تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح ، وقد خلق الله لها فى وسطها مثل جلد أبيض ، كالثوب الصفيق القوى ، من وسطها إلى ركبتها يستر عورتها ، كأنه إزار مشدود على وسطها ، فأمسكوها حتى ماتت عندهم ، وقدرة الله تعالى لا نهاية لها » . ويقول :

« وأهل ويسوا ويورا يُمنَعُون فى الصيف من دخول بلاد بلغار ، لأنه إذا دخل فى تلك الديار منهم واحد فى شدة الحر يبرد الهواء والماء مثل الشتاء ، وتفسد على الناس زروعهم ! وهذا مجرب عندهم ! وقد رأيت فى بلغار زمان الشتاء جماعة منهم حمر الألوان زرق العيون ، شعورهم مثل الكتان إلى البياض ، يلبسون ثياب الكتان فى ذلك البرد ، ويكون على بعضهم فراء من جلود القندز الجياد . وشَعَر ذلك القندز إلى خارج مقلوباً ، ويشربون ماء الشعير الحامض مثل الخل ، فيوافقهم لحرارة مزاجهم ، لأكلهم لحم القندز والسنجاب والعسل . وفى بلادهم نوع من الطير الكبير ، لها مناقير طوال ، مقلوبة على اليمين وعلى الشمال ، الأعلى على اليمين ستة أشبار ، وعلى الشمال ستة أشبار مثل لام ألف . . وإذا وقعت بيضة هذا الطير على الجمد أو الثلج أذابته كما تذيب النار . »

ويمضى بنا أبو حامد إلى بلاد الصقالبة ، ويروى من أخبارهم عجائب وطرائف ، وهو يستهل حديثه على هذا النحو :

« ولما دخلتُ إلى بلاد الصقالبة خرجت من بلغار وركبت سفينة فى نهر الصقالبة وماؤه أسود مثل ماء بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) كأنه الحبر ، وهو مع ذلك حلو طيب صاف ، ليس فيه سمك ، وفيه الحيات السود الكبار ، بعضها على بعض ، أكثر من السمك ، لا تؤذى أحداً . وفيه حيوان مثل السِّنَّوْر الصغير ، له جلد أسود يسمى سَمُّور الماء تحمل جلوده إلى بلغار . . . ولما وصلت إلى بلادهم رأيت بلاداً واسعة ، كثيرة العسل والحنطة والشعير والتفاح الكبير . . . ويتعاملون بينهم بجلود السنجاب القديم الذى لا شَعْر عليه ... وللصقالبة سياسات عظيمة ، إذا تعرض أحد لجارية غيره أو ولده أو دابته أو تعدى بأى شيء من التعدى كان ، أُخذ من المتعدِّى جملة من المال ، فإن لم يكن له مال بيع أولاده وبناته وزوجته فى تلك الجناية ، فإن لم يكن له أهل ولا أولاد بيع هو ، فلا يزال عبداً يخدم من يكون عنده حتى يموت . . . وبلادهم آمنة ، وإذا عامل المسلم منهم أحداً وأفلس الصقلبيّ بيع هو وأولاده وداره ، ويعْطَى لذلك التاجر دينه . والصقالبة شجعان ، وهم على مذهب الروم فى النصرانية ، نسطورية ... وحُدِّثت عنهم أنهم كلّ عشر سنين يكثر السحر [عندهم] وتفسد عليهم نساؤهم بالعجائز السحرة ، فيأخذون كل عجوز فى ولايتهم ، فيشدون أيديهن فأرجلهن ويلقيهن فى النهر ، فكل من رسبت من العجائز فى الماء تركوها ، وعلموا أنها ليست بساحرة ، والتى تطفو على الماء يحرقونها بالنار » .

ويترك أبو حدمد إقليم الصقالبة إلى إقليم باشغرد ، ويقول إنه فوق بلاد الصقالبة بأربعين يوماً ، بين رياض وأشجار عالية ، ويأخذ فى سرد الأخبار عن هذا الإقليم ، ومما يقول فيه :

« ملك باشغرد يسمى كزالى ، وملكه أعظم من ملك صاحب الروم أضعافاً مضاعفة ، لا تُحْصَى جنده ، وولايته أكثر من ولاية الروم عشرين يوماً

وأكثر ، وهو على مذهب الإفرنج (يريد أنه مسيحى) لأنه تزوج منهم ، ويغزو بلاد الإفرنج ويَسْبيهم ، وجميع الأمم يخافون من شره لكثرة جنده وشدة بأسه . . . وفى باشغرد بقر وحشية كبار أمثال الفيلة ، جلد الواحد منها حمل بغلين قويين ورأسه حمل عَجَلة ، يصطادونه ويسمى التَّيْتل وهو من أعجب الحيوان ، طيب اللحم ، سمين ، وقرونه كبار طوال مثل أنياب الفيلة » .

ويعود أبو حامد من هذه الديار مولياً وجهه نحو الشرق . ويصل إلى إقليم خوارزم ، ويفيض فى الحديث عن هذا الإقليم . وواضح مما نقلنا عنه أن ملكة النقد للأخبار لم تكن واسعة عنده ، ويتبين ذلك مما رواه عن خروج فتاة من أذن سمكة . وكان حريا أن يكذب هذا الخبر ، ولكن لعله جاء به على سبيل القصص والإطراف بالحكايات . ومن أطرف ما مر فى حديثه عن إقليم يورا وصفه لسيرهم على الثلج وتنقلهم على سطحه بصورة مشبهة لما تعرضه علينا دور الخيالة .

٣

أسامة بن منقذ بين الصليبيين

أحد أبطال المعارك الصليبية كان أديباً شاعراً ، عاش فى القرن السادس للهجرة (الثانى عشر الميلادى) وعُمِّر طويلا (٤٨٨ — ٥٨٤ هـ / ١٠٩٥ — ١١٨٨م) وهو من قلعة شَيْزر شمالى الشام وكان آباؤه أمراء هذه القلعة ، وكان ينازلهم الصليبيون ، ولهم معهم وقائع كثيرة ، وجلّى أسامة فى غير موقعة .

ونزل مصر ، وأقام فيها مدة فى أثناء الحكم الفاطمى ، وطاف ببلاد العرب والجزيرة ، وكانت عنده موهبة قصصية ، وكان دقيق الملاحظة ، فسجل الحوادث

التي عاش فيها بمسقط رأسه ، وبمصر ، وقص كثيراً عن الصليبيين ، وكانوا يجلّونه ، واتخذ منهم غير صديق .

وكتابه « الاعتبار » هو المسرح الذي اختاره لتسجيل مذكراته ، وقد قصّر الباب الأول فيه على حروبه وأسفاره إلى دمشق ومصر ومشاهداته للصليبيين فى دياره أثناء الحرب وفى السلم . وهنا وهناك ينثر طرائف ما شاهده بنفسه فى حروبهم ، وكيف كان أهل الشام يذودون عن وطنهم بالنفس والنفيس .

ومن أطرف ما فى الكتاب حديثه عن طبائع الإفرنج وأخلاقهم ، وهو يصور ذلك فى قالب قصصي يوضح لنا فيه تأخرهم الثقافى وأنه لم يكن عندهم شيء من الفكر أو الفلسفة يقتبسها العرب عنهم ، ويسخر من طرقهم فى القضاء ، ومايعتمدون عليه فى محاكماتهم من المبارزة ، ولاحظ على رجالهم نقص الغيْرة على نسائهم ، وندعه يتحدث بنفسه ، راوياً عجائبهم فى الطب وغيره ، يقول :

« ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (بلدة فى شمالى لبنان) كتب إلى عمى يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانيا يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ! قال : أحضروا عندى فارساً قد طلعت فى رجله دُمَّلة وامرأة قد لحقها نشاف (لعله جفاف اللبن فى الرضاعة) فعملت للفارس لُبَيْخة ، ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبتُ مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجى ، فقال لهم هذا ما يعرف شيء يداويهم ! وقال للفارس أيما أحبّ إليك ، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، قال : أحضروا لى فارساً قويًّا وفأساً قاطعاً ، فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحطّ ساقه على قطعة خشب كبيرة ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، تقطعها ، فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ، فما

انقطعت ، وضربه ضربة ثانية ، فسال مخّ الساق ، ومات من ساعته .
وأبصر المرأة ، فقال : هذه امرأة فى رأسها شيطان . . . احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم: الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف . فقال الشيطان قد دخل فى رأسها ، فأخذ الموسى وشق فى رأسها صليباً ، وسلخ وسطه حتّى ظهر العظم وحكّه بالملح ، فماتت فى وقتها ، فقلت لهم : بقى لكم إلىّ حاجة ؟ قالوا لا !

وكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا (سكنوا البلاد) وعاشروا المسلمين .

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته يلقاه رجل آخر ، فيأخذ المرأة ويعتزل بها ، ويتحدث معها والزوج واقف بناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى .

ودخلتُ فى الحمام بمدينة صور ، فجلست فى خلوة فيها ، فقال لى بعض غلمانى : فى الحمام معنا امرأة . فلما خرجت جلست على المصاطب ، وإذا التى كانت فى الحمّام قد خرجت ، وهى مقابلى قد لبست ثيابها ، وهى واقفة مع أبيها ، ولم أتحقق أنها امرأة ، فقلت لواحد من أصحابى : بالله أبصر هذه أمرأة هى ؟ . . . فالتفت إلىّ أبوها ، وقال : هذه ابنتى ماتت أمها ، وما لها من يغسل رأسها ، فأدخلتها معى الحمام وغسلت رأسها ، فقلت : جيدٌ ما عملتَ . هذا لك فيه ثواب .

وحضرتُ بطبرية فى عيد من أعيادهم ، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح ، وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما فى رأس الميدان ، وتركوا فى رأسه الآخر خنزيراً سمّطوه وطرحوه على صخرة . وسابقوا بين العجوزين ، ومع كل واحدة منهما سَرِيّة (طائفة) من الخيّالة يشدون منها ، والعجوزان تقومان وتقعان

على كل خطوة ، وهم يضحكون ، حتى سبقتْ واحدة منهما ، فأخذت ذلك الخنزير فى سبقها .

وشهدتُ يوماً بنابلس ، وقد أحضروا اثنين للمبارزة . وكان سبب ذلك أن حراميّة من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس ، فاتهموا بها رجلا من الفلاحين ، وقالوا : هو دلّ الحرامية على الضيعة ، فهرب ، فأنفذ الملك (ملك أورشليم) من قَبَضَ أولاده ، فعاد إليه ، وقال أنصفنى أنا أبارز الذى قال عنى : إنى دللت الحرامية على القرية ، فقال الملك لصاحب القرية المُقْطع (الإقطاعى) أحضرْ من يبارزه ، فمضى إلى قريته ، وفيها رجل حدّاد ، فأخذه وقال له : تبارز إشفاقاً من المقطع على فلاّحيه ، أن يقتل منهم واحد ، فتخرب فلاحته . وشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوى . . . يمشى ويجلس ، يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذى طلب البراز شيخ إلا أنه قوى النفس يزمجر ، وهو غير محتفل بالمبارزة ، فجاء البسكند (Viscount) وهو شحنة البلد (الذى يضبطها من جهة الحاكم) فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقة ، والتقيا ، فكان الشيخ يلزّ (يشدّ) ذلك الحداد وهو يتأخر ، حتى يلجئه إلى الحلقة ، ثم يعود إلى الوسط ، وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم . فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما . ونفع الحداد إدمانه على ضرب المطرقة ، وأعيا ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ، ووقعت عصاه تحت ظهره ، فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه فى عينيه . . . ثم قام عنه ، وضرب رأسه بالعصا حتى قتله . فطرحوا فى رقبته فى الوقت حبلا وجرّوه . وجاء صاحب الحدّاد وأعطاه غفارة (رداء للرأس) وأركبه خلفه وأخذه وانصرف ، وهذا من جملة فقههم ، لعنهم الله » .

وأسامة بذلك يعطينا صورة واضحة عن حياة الصليبيين حين استقروا فى الشام وكونوا بها مستعمراتهم التى أزالهم عنها فيما بعدُ صلاحُ الدين

وخلفاؤه من الأيوبيين والمماليك، وقد قصّ طرائف عن بطولة النساء من العرب فى كفاح القوم ، وكيف كُنّ يؤثرن الموت على االوقوع أسيرات فى أيدى الصليبيين ومما يقصه من ذلك هذه الحادثة ، إذ يقول :

« كان فى جند الجَسْر رجل كردى ، يقال له أبو الجيش ، له بنت اسمها رفول ، قد سباها الإفرنج ، وهو قد توسوس عليها يقول لكل من لقيه يوماً : سبيتْ رفول ! فخرجنا من الغد نسير على النهر ، فرأينا فى جانب الماء سواداً ، فقلنا لبعض الغلمان : اسبحْ وأبصرْ ما هذا السواد . فمضى إليه ، فإذا ذلك السواد رفول عليها ثوب أزرق، وقد رمت نفسها من فوق فرس الإفرنجى الذى أخذها، فغرقت ، وعلق ثوبها فى شجرة صفصاف ، فسكنت لوعة أبيها أبى الجيش . »

٤

عبد اللطيف البغدادى فى مصر

عالم بغدادى كبير كان واسع الثقافة ، درس الفلسفة والطب وعلوم الدين واللغة ، وترك مؤلفات كثيرة فى كل فن . ولد سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م وطاف بالشام ومصر ، وأقام فى الأخيرة فترة يغلب على الظن أنها كانت فيما بين سنتى ٥٩٧ ، ٥٩٩هـ (١٢٠٠، ١٢٠٢ م) فإنه وصف قحطاً أصاب مصر فى تلك المدة ، وقد بالغ فى وصفه ، وقال إن الناس كانوا يأكلون لحوم الموتى !

وهذا الوصف ضمنه كتابه « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . والكتاب طُرْفَةٌ من طُرَف كتب الرحلات، فإنه كان

ناقداً بصيراً ، وعالماً فيلسوفاً ، فلم يصف ما شاهده فقط بل درسه ومحّصه ، وقد قسم الكتاب إلى مقالتين ، وقسّم المقالة الأولى إلى ستة فصول ، تحدث فى الفصل الأول عن خواص مصر العامة ، فقال إنها واد تكنفها الجبال والصحارى، والنيل ينساب فيها، ويتشعب بأسفل الأرض ، وجميعُ شُعَبه تصب فى بحر الروم . وذكَر للنيل خاصتين طول مسافته وفيضانه فى نهاية الصيف ، ولاحظ أن أرض مصر رملية ، ولكن يأتيها النيل بطين أسود فيه دسومة كثيرة ،وكل سنة يأتيها طين جديد، ولهذا تزرع جميع أراضيها ولا يُراح شىء منها كما يُفْعَل فى العراق .

وعقد الفصل الثانى من هذه المقالة للنباتات ، ووصفها وصفاً دقيقاً ، وَصْفَ عالم فيلسوف ، وهو يستهله بالحديث عن البامية ، فيقول :

« من ذلك البامية ، وهى ثمر بقدر إبهام اليد . . . شديد الخضرة ، إلا أن عليه زِئْبراً مشوّكاً ،وهذا الثمر مخمس الشكل يحيط به خمسة أضلاع ، فإذا شُقّ انشق عن خمسة أبيات بينها حواجز ،وفى تلك الأبيات حبٌّ مصطفٌّ مستدير أبيض ، أصغر من اللوبيا ،هشّ ، يضرب إلى الحلاوة ، وفيه قبض ولعابية كثيرة ، يطبخ أهل مصر به اللحم ،بأن يُقْطَع مع قشوره قطعاً صغاراً ، ويكون طعاماً لا بأس به ، الغالب على طبعه الحرارة والرطوبة ، ولا يظهر فى طبخه قبض ، بل لزوجة » .

ويمضى على هذا النحو الدقيق فى وصف بقية نباتات مصر وفواكهها ، وفى الفصل الثالث يتكلم عما تختص به مصر من الحيوان مما يمشى على الأرض أو يجرى فى النيل أو يصاد من البحر الرومى ، يقول :

« ومن ذلك التّرْسة، وهى سلحفاة عظيمة ، وزنها نحو أربعة قناطير إلا أن جفنيها أعنى عَظْم ظهرها كالتّرْس ، له أفاريز خارجة عن جسمها نحو الشبر ، ورأيتها بالإسكندرية ، يُقْطَع لحمها ويباع ، كلحم البقر ،

وفى لحمها ألوان مختلفة ما بين أخضر وأحمر وأصفر وأسود وغير ذلك من الألوان ، ويخرج من جوفها نحوُ أربعمائة بيضة ، كبيض الدّجاج سواء ، إلا أنه لين القِشْر . واتخذتُ من بيضها عجّة ، فلما جمد صار ألواناً ما بين أخضر وأحمر وأصفر شبيهاً بألوان اللحم . ومن ذلك الدلينس (أم الخلول) وهو صدف مستدير إلى الطول . . . ينشقّ عن رطوبة مخاطية بيضاء ، ذات نكتة سوداء ، يعافها الناظر ، وفيه ملوحة عذبة ، زعموا ، ويباع بالكَيْل » .

ويتحدث فى الفصل الرابع عن آثار مصر العجيبة حديث العالم المحقق ، وكأنه عالم عصرى من علماء الآثار ، ونحن نعرض طائفة من أقواله فى هذا الفصل وصَفَ فيها الأهرام وأبا الهول ، يقول :

« ومن الآثار القديمة الأهرام ، وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها ، وهى كثيرة العدد جدا ، وكلها ببَرّ الجيزة ، وعلى سَمْت مصر القديمة ، وتمتد فى نحو مسافة يومين ، وفى بوصير منها شىء كثير ، وبعضها كبار وبعضها صغار ... وبعضها مدرّج وأكثرها مخروط أملس . . . وأما الأهرام المتحدث عنها المشار إليها الموصوفة بالعظم فثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط ، وبينها مسافات يسيرة ، زواياها متقابلة نحو المشرق ، واثنان منها عظيمان جدا وفى قدر واحد ، وبهما أولع الشعراء ، وشبهوهما بنهدين ، قد نهدا فى صدر الديار المصرية ، وهما متقاربان جداً . . . وأما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع . . . وتجده صغيراً بالقياس إلى الآخرين ، فإذا قربت منه وأفردته بالنظر هالك مرآه ، وحَسَرَ الطرفُ عند تأمله . وقد سُلك فى بناية الأهرام طريق عجيب من الشكل والإتقان ، ولذلك صبرتْ على مر الزمان ، بل على مرّها صبر الزمان ، فإنك إذا تبصّرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استُهلكتْ فيها ، والعقول الصافية قد أفرغتْ عليها مجهودها ، والأنفس النيرة قد أفاضتْ عليها أشرف ما عندها لها ، والملكات الهندسية قد

أخرجتها إلى الفعل مثلا هو غاية إمكانها ، حتى إنها تكاد تحدث عن قومها وتُخبر بحالهم ، وتنطق عن علومهم وأذهانهم ، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم . . . وإن المُسَّاح ذكروا أن قاعدة كل منهما أربعمائة ذراع طولا فى مثلها عرضاً . . . وأما الذى شاهدته من حالهما فإن رامياً كان معنا رمى سهماً فى قطر أحدهما وفى سمكه، فسقط السهم دون نصف المسافة ، وخبَّرنا أن فى القرية المجاورة لهما قوماً قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة ، فاستدعينا رجلا منهم ورضخنا له بشىء ، فجعل يصعد فيها ، كما يرقى أحدنا فى الدرج ، بل أسرع ... وفى أحد هذين الهرمين مدخل ، يلجه الناس، يفضى بهم إلى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك . . . وهذا المدخل ليس هو الباب المتخذ له فى أصل البناء ، وإنما هو منقوب نقباً صودف اتفاقاً . . . وهذه الأهرام مبنية بحجارة جافية ، يكون طول الحجر منها ما بين عشرة أذرع إلى عشرين ذراعاً ، وسمكه ما بين ذراعين إلى ثلاث ، وعرضه نحو ذلك ، والعجب كل العجب فى وضع الحجر على الحجر بهندام ، ليس فى الإمكان أصح منه ، بحيث لا تجد بينهما مدخل إبرة ولا خلل شعرة ، وبينهما طين ، كأنه الورقة لا أدرى ما صنفه ولا ما هو . وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه . وهذه الكتابات كثيرة جدا .

وعند هذه الأهرام بأكثر من غَلْوَة (مقدار رمى السهم) صورة رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم ، يسميه الناس أبا الهول . . . وفى وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليه رونق الطلاوة ، وهو حسن الصورة مقبولها ، عليه مسحة بهاء وجمال ، كأنه يضحك مبتسما . وسألنى بعض الفضلاء ما أعجبُ ما رأيت ؟ فقلت تناسب وجه أبى الهول ، فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والأذن متناسبة ، كما تصنع الطبيعةُ الصورَ متناسبة . . . والعجب من

مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب فى الأعضاء مع عظمها ، وأنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله » .

وينتقل إلى الحديث عن عين شمس واستظهر أنها كانت بيت عبادة ! وتحدث عن صورها وتماثيلها ومسلتيها المشهورتين ، ووصف المسلة بأنها « قاعدة مربعة ، طولها عشر أذرع فى مثلها عرضا فى نحوها سمكاً قد وضعت على أساس ثابت فى الأرض ، ثم أقيم عليها عمود مربع مخروط ، ينيف طوله على مائة ذراع ، يبتدئ من قاعدة، لعل قطرها خمس أذرع ، وينتهى إلى نقطة ، قد ألبس رأسها بقلنسوة نحاس ، إلى ثلاث أذرع منها كالقمع » . وتحدث عن الإسكندرية وعمود السوارى بها ووصفه وصفاً دقيقاً ، ثم تحدث عن منف التى كان يسكنها الفراعنة وقال فيها : « هذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل عليها واستئصال الأمم إياها من تعفية آثارها ومحو رسومها ونقل حجارتها وآلاتها وإفساد أبنيتها وتشويه صُوَرها ، مضافاً إلى ما فعلته فيها أربعة آلاف سنة فصاعداً ، تجد فيها من العجائب ما يفوت فهم المتأمل ، ويُحْصَرُ دون وصفه البليغ الملسن » . وأطال فى وصف آثار منف ومقابر الفراعنة التى تملأ الوادى ، وعرض لتخريب المصريين لها بحثاً عن الذهب المدفون مع الموتى ، وتلوَّم من يحاولون نقض هذه الآثار من ملوك الإسلام ، وقال : « ما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار ، وتمنع من العبث فيها والعَيْث بها وإن كانوا أعداء لأربابها ، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح ، منها لتبقى تاريخاً يتنبَّه به على الأحقاب . »

وعقد الفصل الخامس من المقالة الأولى فى هذا الكتاب للحديث عن غرائب الأبنية المستحدثة والسفن ووقف طويلا عند الحمامات وأشاد بها وبأحواضها وما يتَّخذ فيها من مقاصير . وخص الفصل السادس بما فى مصر من غرائب الأطعمة .

أما المقالة الثانية فقد قسمها إلى ثلاث فصول ، جعل الفصل الأول منها للنيل وكيفية زيادته وعلل ذلك وقوانينه ، وأما الفصلان الثانى والثالث فجعلهما للكلام فى حوادث سنتى ٥٩٧ و ٥٩٨ ه . وكان قد تصادف وجود قحط وظهور وباء بمصر ، فأفاض فى وصف ذلك وكثرة ما كان من موتى وفقر ماحق ساحق .

٥

رحلات مختلفة

ووراء هذه الرحلات فى الأمم والبلاد كثير من الرحلات التى دوّنها كبار العلماء والفلاسفة والأدباء من العرب ، وسجلوا فيها مشاهداتهم وخبراتهم . ولعل أكبر رحالة فيلسوف عند العرب هو البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ ه/ ١٠٤٨ م وقد خصّ برحلته الهند ، وهو فارسى من إقليم خوارزم ، صحب السلطان محموداً الغزنوى فى فتوحاته المشهورة بالهند، واستقر فيها أربعين عاماً يدرس ويفحص ، واستطاع أن يتعلم لغتها القديمة السنسكريتية .

والبيرونى من ذوى العقول المتفلسفة الكبيرة التى يفخر بها العرب، وقد دون مشاهداته بالهند فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة : مقبولة فى العقل أو مرذولة ». والكتاب ليس رحلة بالمعنى الذى نعرفه فى كتب الرحلات ، وإنما هى موسوعة لجغرافية الهند وتاريخها ومعارفها فى العلوم وخاصة الرياضة والفلك . وهو يقف دائماً للمقارنة بين المذاهب الفلسفية اليونانية والحكمة الهندية وما يتصل بها مذاهب التصوف عند القوم . ومن طريف ما لاحظه فى هذا الصدد يتح للهند أمثال فلاسفة اليونان ممن هذبوا الأفكار والمعارف .

قواعد وقوانين متسقة ، ولذلك كانت كتبهم يختلط فيها الغث بالسمين والخزف بالصدف . ومعنى ذلك أنه لم يكن للهند منهج علمى ، يخلّص عقل مفكريها من الخرافات والأوهام .

والكتاب ملىء بخرافاتهم وأساطيرهم وعباداتهم وما يؤمن به البراهمة وقديسوهم ، ومن أهم ما فيه حديثه عن رسومهم فى دينهم وقرابينهم وحَجّهم وصدقاتهم وما يبيحونه ويحرمونه من المطاعم والمشارب ، ومن قوله فى ذلك :

« الإماتة فى الأصل محظورة عليهم بالإطلاق ... ولكن الناس يَقْرمون إلى اللحم ، وينبذون فيه وراء ظهورهم كل أمر ونهى ، فيصير ما ذكرناه مخصوصاً بالبراهمة ، لاختصاصهم بالدين ومنع الدين إياهم من اتباع الشهوات ، كالمثال فيمن هو فوق أساقفة النصارى من مطران وجاثليق وبطرك . . . وإذا كان الأمر على هذا أبيحت الإماتة بالتخنيق وإمساك النفس فى بعض الحيوان دون بعض ، وحُرِّمت الميتة من المباحات إذا ماتت حتف أنفها . فأما المباحات فهى الضأن والماعز والظباء والأرانب والجواميس والسمك والطير المائية والبرية منها كالعصافير والفواخت والدراريج والحمام والطواويس وما لا تعافه النفس مما لم يرد به حظر . والمنصوص على تحريمه البقر والخيل والبغال والأحمرة والأبعرة والفيلة والدجاج الأهلية والغربان والببغاء وبيض جميعها بالإطلاق ، والخمر » .

ويتحدث عن قضائهم وعقوباتهم وكَفّاراتهم وما عندهم من تأديب وتغريم ومواريثهم وحرقهم لموتاهم وصيامهم وأعيادهم وأفراحهم وأيامهم المعظمة وأوقاتهم المسعودة والمنحوسة لاكتساب الثواب ومجامعهم وأنهارهم المقدسة وما يؤمنون به من أحكام النجوم ، وكل ما يَسِمهم فى عاداتهم وطباعهم . وهو يفيض فى ذلك إفاضة الفيلسوف البصير ، الذى يعرف كيف يلاحظ وينقد ، مع دقة التفكير وعمقه .

وممن زاروا مصر وتحدثوا عنها الهروىّ السائح المتوفى سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م وهو ممن طافوا بالعالم الإسلامى وقد زار القسطنطينية وصقلية وغيرها من جزائر بحر الروم ، وعُنى بتدوين تطوافه ، ولكن من جهة خاصة، هى ما شاهده من المساجد والأبنية والعمارات والأصنام والآثار والطلسمات ، وألف فى ذلك كتاباً سماه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » .

وربما اطلع على كتاب عبد اللطيف البغدادى عن مصر فإنه تابعه فى وصف آثارها ومعابدها وقبور فراعنتها وقال إنه دخل الهرم ، غير أنه يختلف عن البغدادى فى أنه لم يكن عالماً ناقداً ولا فيلسوفاً بصيراً ، فملأ كتابه بالأساطير والخرافات .

واشتهر الأندلسيون بكثرة ما كتبوا من رحلاتهم إلى المشرق ؛ وسنفرد لرحلتى ابن جبير وابن بطوطة فصلين خاصين . ووراء هاتين الرحلتين رحلات مختلفة لا يزال أكثرها مخطوطاً مثل رحلة العبدرى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وابن رُشيد السبتى المتوفى سنة ٧١١ هـ / ١٣١٢ م والبلوى فى القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) وقد عُنوا فى رحلاتهم بأخبار الأدباء والعلماء فى كل قطر شاهدوه . ويمكن أن نُدخل فى هذا الباب ما كتبه ابن خلدون باسم « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » ومعروف أنه ولد بتونس ورحل إلى غرناطة فى الأندلس ، واتصل وداخل ملوك المغرب ومصر ، وفيها ألقى عصا تسياره ، حيث ولى القضاء . وقد رافق السلطان الناصر فى تصدّيه لتيمور لنك وجيوشه بالشام . وهو يعطينا فى تعريفه بنفسه وبرحلته كثيراً من المعلومات عن عصره والبلدان التى زارها فى الأندلس وعلى طوال الشاطئ الإفريقى إلى الشام ، كما يعطينا كثيراً من المعلومات السياسية والتاريخية . وما زالت كتابة الرحلات مستمرة بعد ابن خلدون ، يكتبها المغاربة والمشارقة حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث اتجه الرحالة إلى أوربة يصفون

مشاهداتهم فيها ، ومن أشهر ما كتب فى ذلك رحلة رفاعة الطهطاوى إلى فرنسا وقد سماها « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » وفيها وصف رحلته إليها مع البعث العلمى الأول من بعوث محمد على ، وكان فى سنة ١٨٢٤ مصوراً ما شاهده فى باريز من جوانب الحياة المادية والسياسية والثقافية تصويراً حيا يعبر عن حماسة هذا الشيخ ومبلغ ما أثرته الحضارة الفرنسية فى عقليته المصرية الشرقية .

والرحلة طريفة حقا ، لأنها تصور لنا كيف كان المصريون فى النصف الأول من القرن الماضى يرون الحياة الفرنسية . وكيف كانوا يتصلون بها متأثرين ، وكيف كانوا يحكمون على جوانبها المختلفة . غير أنه كتبها فى عبارة مسجوعة ، وكان حريًّا به أن يحذو حذو رحّالتنا القدماء ؛ فلا يدخل السجع فى كتابه . ولا يجعله عائقاً دون تصوير ما يريد أن يصوره من حياة القوم .

ومن فصول الرحلة الممتعة فصل كتبه عن السياسة عند الفرنسيين ؛ لاحظ فيه أن نظم الحكم هناك تختلف عن نظائرها فى مصر ، فملك فرنسا (وكانت قد عادت لها الملكية) لا يحكم كما يحكم محمد على حكماً مطلقاً ، وإنما يحكم بمقتضى دستور يحدد سلطانه ، وقد قرأ هذا الدستور ، واعتذر عن ترجمته . وكأنه كان يتمنى لو أخذ محمد على بهذا النظام الدستورى ، وترك النظام الفردى الاستبدادى الذى كان يحكم به مصر والمصريين ، والذى لم يكن يتقيد فيه بقوانين ولا ما يشبه القوانين .

وللمصريين بعد رفاعة كثير من الرحلات إلى أوربة ، تارة يذهبون إلى مؤتمرات ، وتارة يذهبون لغرض النزهة ، وفى الغرضين جميعاً كانوا يكتبون ويصفون ما يشاهدونه هناك ، من مثل ما كتبه أحمد زكى (باشا) ، وللبتانونى رحلة إلى الأندلس . ويمكن أن ندخل فى هذا الباب الملحق الذى أضافه محمد المويلحى إلى كتابه حديث عيسى بن هشام ، حيث وصف الغرب ومعرضاً من معارض باريس .

وبجانب ذلك توغل المصريون فى جنوب السودان يريدون أن يعرفوا منابع النيل ، وكان كثير من الغربيين قد سبقوهم إلى ذلك ، فشاركوهم وأسهموا معهم فى هذا الميدان . وعنى كثير من الرحالة على رأسهم البتانونى بوصف الرحلة إلى مكة المكرمة ، وكتابه « الرحلة الحجازية » ذائع مشهور ، وفيه كثير من المصوَّرات ، وهو غنى بالمعلومات عن مناسك الحج . ولمحمد حسين هيكل « من وحى النبوة » وهى رحلة فى البلاد الحجازية ، كتبها بأسلوبه البليغ ، وقام أحمد حسنين برحلة فى الصحراء الغربية ، اكتشف فيها بعض واحات كانت مجهولة ، وصور رحلته فى جزءين بعنوان « فى صحراء ليبيا » واهتمّ بأرصاد فلكية مختلفة ، وعَيَّن مواضع جغرافية كثيرة ، وجلب معه طائفة من النماذج الجيولوجية . وممن يكثرون عن رحلاتهم فى الشرق والغرب ووصْف ما يشاهدون هنا وهناك محمد ثابت . وزار أمريكا محمود تيمور ودَوَّنَ مشاهداته فى كتابه « أبو الهول يطير » . ووراء من سميناهم كثيرون يكتبون عن الغرب والشرق والحجاز ، وإن من الصعب أن نحصيهم لكثرتهم . ونعود إلى الوراء لنعرض أهم رحلتين خلفتهما عصورنا الوسطى ، وهما رحلة ابن جبير وابن بطوطة ، إذ لا تزال لهما شهرة مدوية إلى وقتنا الحاضر .

الفصل الرابع

رحلة ابن جبير

١

حياته وتطوافه فى البلاد

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جُبَيْر الكنانى الأندلسى . أصل أسرته من بلدة شاطبة هناك، وولد ببلنسية سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م وعنى أبوه بتربيته، فدرس العلوم الدينية واللغوية ، ولم يلبث أن تيقظت فيه مواهبه الأدبية ، فأخذ فى قرض الشعر .

ولمع اسمه ، فألحقه حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن بكُتَّاب ديوانه ، وخَفَّ على نفسه، فكان يُحضره مجلس شرابه ، وكان ينقبض عن الشرب ، فألح عليه الحاكم أن يشرب معه ، وأقسم عليه ليشربنَّ سبعا ، وجاراه ، فشرب سبع كئوس . وسُرَّ الأمير ، وملأ له الكأس بالدنانير سبع مرات ، وصَبَّها فى حجره ، فأصرَّ فى نفسه أن يكفِّر عن سيئته ، وأن ينفق هذه الدنانير فى الحج إلى بيت الله . ولم يلبث أن أعلن عزمه لأبى عثمان، وأنه حلف بأيمان لا محيص له من البرّ بها ، فأعانه على ما ابتغاه .

وفَصَلَ ابن جبير من غَرْناطة فى ٨ من شوال سنة ٥٧٨هـ / ٣ من فبراير سنة ١١٨٣م، وركب البحر فى سفينة لبعض أهل جنوة قاصداً إلى الإسكندرية. ونزل بها ، وولى وجهه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر ، فعيذاب حيث اجتاز البحر إلى جُدَّة . واتجه من فوره إلى مكة، فأدى فريضة الحج،

وزار المدينة ، وظل فى هذه البلاد المقدسة نحو ستة أشهر ، ثم قصد إلى الكوفة ، فبغداد فالموصل ولم يمر مروراً عابراً بهذه البلاد ، بل كان يمكث بعض الوقت يدرس ويفحص . وانتقل إلى الشام ، وكان للصليبيين فيها مستعمرات كثيرة ، فجاس خلال ديارهم . وأخيراً ركب البحر من عكا عائداً إلى بلاده على مركب مسيحى ، وألمت المركب بصقلية ، فنزل فيها وطاف ببلادها ، ثم رحل إلى بلاده ووصل إليها فى ١٥ من المحرم سنة ٥٨١هـ/ ٢٥ من أبريل سنة ١١٨٥م .

ورحلة ابن جبير تقصّ ما شاهده فى طريقه إلى حَجّه وعودته منه ، وهى مكتوبة بشكل مذكرات يومية ، فمع كل مشهد وكل بلدة التاريخُ باليوم والشهر . ويظهر أنه كتبها فى أوراق منفصلة ، ولم يجمعها بنفسه بل جمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » ومع ذلك فإن من نشروها فى العصر الحديث من المستشرقين والعرب آثروا أن يطلقوا عليها اسم « رحلة ابن جبير » .

ورحل ابن جبير إلى المشرق بعد هذه الرحلة مرتين ، فإنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس واستيلائه عليه من أيدى الصليبيين ، فحدثته نفسه أن يزور هذه الأماكن وعَلَمُ الإسلام والعرب يرفرف عليها ، ولم يلبث أن رحل رحلته الثانية فى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م وعاد إلى بلاده فى سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١م . وماتت زوجه فحزن عليها حزناً شديداً ، وقد خصها بديوان من شعره ، ولم يجد عزاء عنها إلا أن يحج إلى بيت الله ، فرحل رحلته الثالثة فى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م وأقام بمكة مدة ، ثم تحول عنها إلى الإسكندرية ، وأقام بها يحدّث ويؤخَذ عنه إلى أن لَبّى نداء ربه . ويغلب أن يكون مسجد سيدى جابر بها مسجده ، وأن يكون العامة حرفوا اسمه مع الزمن. والرحلة مكتوبة بلغة سهلة بسيطة ملائمة تماماً لموضوعها ، وطريقته فى السَّرْد

محببة إلى النفس ، وهو يصف ما يشاهده وصفاً دقيقاً ، وقد عنى بالحديث عن المساجد فى كل بلدة ألم بها ، وترك نفسه على سجيتها فلم يتكلف فى عبارة ولا فى فكرة ، وأدى ما داخله من عواطف وأحاسيس إزاء بعض الحوادث والمواقف أداء صادقاً صريحاً .

٢

فى الديار المصرية

يركب ابن جبير البحر بإحدى سفن جنوة وينزل فى الإسكندرية ، فيلقى موظفو الميناء السفينة بتفتيش دقيق ، ويأخذون من راكبيها بعض الضرائب ، ولا ينزلونهم منها إلا بعد تَحَرٍّ وثيق . وشكا ابن جبير من ذلك مر الشكوى ، وغاب عنه أن مصر حينئذ كانت تحارب الصليبيين وأنه كان يركب سفينة أوربية من جنوة ، هى موضع شك واتهام .

ولما استوثق الموظفون منه ومن صحبه الأندلسيين تركوهم وشأنهم ، فجاس خلال الإسكندرية وأعجب بمبانيها ومنارتها ومدارسها وما رُتِّبَ فيها للطلبة والمدرسين من مرافق ومنافع ، وما يجرى على غُرَباء المغاربة من خُبْز يومى معلوم ، وما يسود ذلك من أمن ورفاهية فى المعيشة ، ولندعه يصف لنا ذلك بقلمه ، معدداً محاسن البلد وأخباره وآثاره ، يقول :

« أولُ ذلك حسنُ وضع البلد واتساع مبانيه ، حتى إنا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضاً . . . ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذى قد وضعه الله عز وجلّ على يدىْ من سُخِّرَ لذلك آية للمتوسِّمين ، وهدايةً

للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى برّ الإسكندرية . يظهر على أزيد من سبعين ميلا ، ومبناه فى غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضاً ، يزاحم الجو سموا وارتفاعاً ، يقصر عنه الوصف ، وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع . ذَرَعْنا أحد جوانبه الأربعة ، فألفينا فيه نيفاً وخمسين باعاً » . ويذكر أن طوله أزيد من مائة وخمسين قامة . « وأما داخله فمرأى هائل اتساعَ معارج ومداخل ، وكثرةَ مساكن ، حتى إن المتصرف فيها والوالج فى مسالكها ربما ضل ، وبالجملة لا يحصّلها القول . . . وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذى الحجة المؤرخ ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور ، وشاهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف . ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه (كان حينئذ صلاح الدين الأيوبى) المدارس والمحارس (بيوت الطلاب والزهاد) الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعلمه ، وإجراءً (راتباً) يقوم به فى جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصَب لهم مارستانا (مستشفى) لعلاج من مَرِض منهم ، ووكّل لهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . . . ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عيّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان فى كل يوم بالغاً ما بلغوا ، ونصَبَ لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قبله ، وقد ينتهى فى اليوم إلى ألفىْ خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة . . . وأما أهل بلده ففى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال . . . ومن الغريب أيضاً فى أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع أحوالهم .

وهو أكثر بلاد الله مساجد . . . والمكثر ينتهى فى تقديرها إلى اثنى عشر ألف مسجد ، ومنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول غير ذلك ، وبالجملة هى كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع . . . وكلها بأئمة مرتَّبين من قبل السلطان ، فمنهم من له خمسة دنانير مصرية فى الشهر ، ومنهم من له فوق ذلك ، ومنهم من له دونه ، وهذه منقبة من مناقب السلطان . »

ويأخذ ابن جبير طريقه إلى القاهرة ومصر (الفسطاط) فى الدلتا ، ويصف المدن المختلفة التى مرّ بها ، ثم ينزل فى الفسطاط والقاهرة ، ويذهل أمام آثارهما العجيبة ، ويتحدث عن مشهد الحسين ، ويفيض فى الحديث عن المشاهد الأخرى ، ويصف القلعة والمارستان والأهرام وأبا الهول والجيزة وجزيرة الروضة القائمة بينها وبين الفسطاط . ونكتفى هنا بما يقوله عن مشهد الحسين ثم عن المارستان ، وهو يصفهما على هذا النحو :

« أول ما نبدأ بذكره . . . المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بنى عليه بنيان حَفيل ، يقصر الوصف عنه ، ولا يحيط الإدراك به ، مجلَّلٌ بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعاً أبيض ، ومنه ما هو دون ذلك . قد وضع أكثرها فى أَتْوَار (آنية) فضة خالصة . ومنها مذهبة . وعلقت عليه قناديل فضة ، وحُفَّ أعلاه كله بأمثال النفافيح (الكرات) ذهباً ، فى مصنع (بناء) شبيه الروضة ، يُقَيِّد الأبصار حسناً وجمالا ، فيه من أنواع الرخام المجزَّع ، الغريب الصنعة البديع الترصيع ، ما لا يتخيله المتخيلون ، ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون . والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد ، على مثالها فى التأنق والغرابة . حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة . وعلى يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل إليها ، وهما أيضاً

على تلك الصفة بعينها . والأستارُ البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع . ومن أعجب ما شاهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجرٌ موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص (البريق) يصف الأشخاص كأنه المرآة الهندية الحديثة الصَّقْل . وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك وإحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسُّحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ، ومتضرعين ، ما يذيب الأكباد ، ويصدع الجماد . . . ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر السلطان (صلاح الدين) المارَستان (المستشفى) الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً ، أبرزه لهذه الفضيلة أجراً واحتساباً (طلباً للثواب من الله) . وَعيَّن قَيِّما من أهل المعرفة وضعَ لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها . ووُضعت فى مقاصير (غرف) ذلك القصر أسِرّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسَى . وبين يدى ذلك القَيِّم خدمة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بُكْرة وَعشِيّة . . . وبإزاء هذا الموضع مقتطعٌ للنساء المرضى ، ولهنّ أيضاً من يكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء ، فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد ، اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضاً من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها . وبمصر (الفسطاط) مارستان آخر على مثل ذلك الرَّسْم بعينه . »

وهو يُكثر من مدح صلاح الدين ورعايته لشئون المصريين وما ينزل بقُطْره من المغاربة إذ يُجرى عليهم الأرزاق ويخصهم بعطفه وحدَبه ، وقد نوه باهتمامه بالمدارس وما بها من ضروب التعليم وعنايته بتحفيظ القرآن الكريم ، وأشاد بمحوه للضريبة التى كانت تؤخذ فى القاهرة من حُجَّاج المغرب ومحوها أيضاً من بلاد الحجاز بفضل ما أفاء على هذا القطر من ماله فعوضَ الحاكمين

هناك أجمل عوض بما أدّى إليهم .

ويبرح القاهرة فى شهر المحرم من سنة تسع وسبعين ميمماً وجهه نحو قوص ، ويصف كل ما بطريقه من مدن وآثار وقبور للفراعنة وغيرهم ، ويقف دائماً عند المساجد والأسواق والهياكل العتيقة وما عليها من تصاوير الفراعنة ونقوشهم ، وما يزال فى طريقه ووصفه حتى يصل إلى قوص فيقول :

« ثم كان الوصول إلى قوص يوم الخميس الرابع والعشرين لمحرّم المؤرخ ، وهو التاسع عشر من مايو ، فكان مقامنا فى النيل ثمانية عشر يوماً ، ودخلنا قوص فى التاسع عشر ، وهذه المدينة حفيلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق ، لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين ، وتجار أرض الحبشة ، لأنها محضر الجميع ومحطّ الرحال ومجمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم . ومنها يفوِّزون (يخترقون المفازة) بصحراء عَيْذاب ، وإليها انقلابهم فى صدورهم من الحج ، وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية ، وهى ربضٌ كبير خارج المدينة » .

ويجتاز الصحراء الشرقية من قوص إلى عيذاب على البحر الأحمر واصفاً مراحله فيها ومبيته بها ، وكثرة القوافل الواردة والصادرة من عيذاب تحمل توابل الهند وخاصة أحمال الفلفل والقرفة ، موزعاً ما يشاهده على الأيام والليالى حتى يصل إلى عيذاب ، فيقول فيها :

« هى مدينة على ساحل بحر جُدّة (البحر الأحمر) غير مسوّرة ، أكثر بيوتها الأخصاص (بيوت من طين) وهى من أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها ، زائداً إلى مراكب الحجاج . . . وهى فى صحراء لا نبات فيها ، ولا يؤكل فيها شىء إلا مجلوب ، لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كبير . . . فيجتمع لهم من ذلك مال كثير فى

حملتهم إلى جدة وردّهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة . . . وفى بحر عيذاب مغاصٌ على اللؤلؤ فى جزائر على مقربة منها . . . ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية ، يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر فى الزواريق ، ويقيمون فيها الأيام ، فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق . والمغاص فيها قريب القعر ليس ببعيد ، ويستخرجونه فى أصداف لها أرواح ، كأنها نوع من الحيتان ، أشبه شيء بالسلحفاة ، فإذا شقت ظهرت الشفتان من داخلها كأنها محارتا فضة ، ثم يشقون عليها ، فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف » .

٣

في الأراضى المقدسة

ويركب البحر إلى جُدَّة ، ويشكو من سوء معاملة العرب للحجاج ومما يأخذون منهم من مكوس ، ويشيد بصلاح الدين لتعهده لأمير مكة أن يدفع له سنويًّا ما يعوّضه عن مكوس الحجاج ، وكان يرسل إليه ألفى دينار وألفى أردب من القمح ، ومع ذلك لا يزال هذا الأمير ورعيته يظلمون الحجاج ويرهقونهم من أمرهم عسراً . ويتحول إلى مكة واصفاً الطريق إليها من جدة . ودخلها فى اليوم الثالث من شهر ربيع الآخر ، وهو الرابع من شهر أغسطس كما يقول ، مع طلوع الصباح ، والأصوات تصك الآذان بالتلبية فى كل مكان ، والألسنة تضج بالدعاء ، وتبتهل إلى الله بالثناء . ويصف مناسك الحج وصفاً طويلا ، كما يصف المسجد الحرام وصفاً مسهباً ، ومما يقول فيه :

« البيت المكرم له أربعة أركان ، وهو قريب من التربيع . . . وارتفاعه

فى الهواء من الصَّفْح (الجانب) الذى يقابل باب الصَّفا وهو من الحجر الأسود إلى الركن اليمانى تسع وعشرون ذراعاً ، وسائر الجوانب ثمان وعشرون . . . وأول أركانه الذى فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف . . . وأول ما تلقى بعده الركن العراقى ، وهو ناظر إلى جهة الشمال ، ثم الركن الشامى ، وهو ناظر إلى جهة الغرب ، ثم الركن اليمانى ، وهو ناظر إلى جهة الجنوب ثم تعود إلى الركن الأسود ، وهو ناظر إلى جهة الشرق . وعند ذلك تُتم شوطاً واحداً . وباب البيت الكريم فى الصفح الذى بين الركن العراقى وركن الحجر الأسود . . . والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبراً ونصف ، وهو من فضة مذهبة ، بديع الصنعة ، رائق الصفة ، يستوقف الأبصار حسناً وخشوعاً ، للمهابة التى كساها الله بيته . . . وعضادتاه كذلك ، والعتبة العليا كذلك أيضاً ، وعلى رأسها لوح ذهب خالص إبريز ، وسعته مقدار شبرين ، وللباب نقَّارتا فضة كبيرتان يتعلق عليهما قفل الباب ، وهو ناظر إلى الشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبراً . . . وداخلُ البيت الكريم مفروش بالرخام المجزَّع ، وحيطانه رخام كلها مجزع . قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج (شجر) مفرطة الطول ، بين كل عمود وعمود أربع خُطًا ، وهى على طول البيت متوسطة فيه . . . ودائر البيت كله من نصفه الأعلى مطلىٌّ بالفضة المذهبة المستحسنة ، يخيل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلظها ، وهى تحفّ بالجوانب الأربعة ، وتمسك مقدار نصف الجدار الأعلى . وسقف البيت مجللٌ بكساء من الحرير الملون . وظاهر الكعبة كلها من الجوانب الأربعة مكسوٌّ بستور الحرير الأخضر ، وسداها قطن ، وفى أعلاها رسم بالحرير الأحمر ، فيه مكتوب : (إن أول بيت وُضع للناس للذى ببكَّة) الآية ، واسم الإمام الناصر لدين الله (الخليفة العباسى) . وسعته قدر ثلاث أذرع يطيف بها كلها . قد شُكِّل فى هذه الستور من الصنعة الغريبة التى تبصرها

أشكالُ محاريب رائقة ورسوم مقروءة . . . وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون ستراً . . . وله خمسة مضاوئ (مناور) وعليها زجاج عراقى بديع النقش أحدها فى وسط السقف ، ومع كل ركن مضوأ . . . وبين الأعمدة أكواس من الفضة ، عددها ثلاث عشرة ، وإحداها من ذهب . وأول ما يلقى الداخل من الباب عن يساره الركن الذى خارجه الحجر الأسود ، وفيه صندوقان فيهما مصاحف ، وقد علاهما فى الركن بوَيبان (مصغّر بابين) من فضة ، كأنهما طاقان ملصقان بزاوية الركن ، وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة . . . وفى الركن العراقى باب يسمى باب الرحمة ، يُصْعد منه إلى سطح البيت المكرم ، وقد قام له قَبْو ، فهو متصل بأعلى سطح البيت ، داخله الأدراج ، وفى أوله البيت المحتوى على المقام الكريم ، . . . هو مقام إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه ، وهو حجر مغشى بالفضة ، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار ، وسعته مقدار شبرين ، وأعلاه أوسع من أسفله . . . وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة . . . وداخل الحجر (ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جهة الشمال) بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة ، وهو مفروش بالرخام المجزّع المقطع فى دَوْر الكف إلى دور الدينار ، إلى ما فوق ذلك ، ثم أُلصق بانتظام بديع وتأليف معجز الصنعة ، غريب الإتقان رائق الترصيع والتجزيع ، رائع التركيب والرصف ، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأشكال الشطرنجية وسواها على اختلاف أنواعها وصفاتها ما يقيِّد بصره حسناً ، فكأنه يجيله فى أزهار مفروشة مختلفات الألوان ، إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطاف القسيّ ، وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة . وبإزائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر ، أحدثَ الصانع فيها من التوريق الرقيق والتشجير ما لا يحدثه صَنَعُ اليدين فى الكاغد (الورق)

قطعاً بالجلمين (المقص) فرآهما عجيب . . . وقبة بئر زمزم تقابل الركن ، ومنها إليه أربع وعشرون خطوة ، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض ، وتنور البئر المباركة فى وسطها ، وعمقها إحدى عشرة قامة حسبما ذرعناه ، وعمق الماء سبع قامات على ما يذكر . . . والحجر الأسود المبارك ملصق فى الركن الناظر إلى جهة المشرق . . . وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعُقَد ، وفيه أربع قطع ملصقة . . . والمسجد الحرام يطيف به ثلاث بلاطات على ثلاث سوارٍ من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد ، ذَرْعها فى الطول أربعمائة ذراع وفى العرض ثلاثمائة ذراع . . . وعدد سواريه الرخامية التى عددتها بنفسى أربعمائة وإحدى وسبعون سارية . . . والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم . »

ويستمر ابن جبير فى وصف المسجد ، ويعرض علينا وصفاً دقيقاً للكعبة وكسوتها ولكل ما بداخل المسجد من أجزاء ، ويطيل فى وصف فتحه للناس والرسوم المتخذة لذلك ، كما يطيل فى وصف المنبر وهيئة خطيبه وما يقول فى خطبة الجمعة من أدعية ، ولا يكاد يترك شيئاً فى المسجد ولا فى ظاهره وسطحه إلا ويصفه وصفاً دقيقاً ثم يصف مكة وآثارها وجبالها ومشاهدها وأبوابها ومطاعمها وحماماتها واحتفال الناس فيها بليلة نصف شعبان وبرمضان ويوم العيد ، ويفيض فى وصف مناسك الحج ومشاعره وصْفَ المشاهد اليقظ الذى لا تفوته صغيره ولا كبيرة ، وهو يقسم ذلك على الأيام والساعات ، إذ يكتب دائماً ما يكتب فى صورة يوميات . وما يزال بمكة حتى اليوم العشرين من ذى الحجة ، فيعزم على زيارة المدينة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويصل إليها فى اليوم الثالث من المحرم ، ويستهل حديثه عنها بوصفه لمسجد الرسول ، ومما قال فيه :

« المسجد المبارك مستطيل ، وتحفّه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به ،

ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى ، والجهة القبلية منه لها خمسة بلاطات مستطيلة من غرب إلى شرق ، والجهة الجوفية لها أيضاً خمسة بلاطات على الصفة المذكورة ، والجهة الشرقية لها ثلاثة بلاطات ، والجهة الغربية لها أربعة بلاطات . والروضة المقدسة (قبر الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر) مع آخر الجهة القبلية مما يلي الشرق . . . وشكلها شكل عجيب ، لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله . . . وجميع سَعة الروضة المكرمة من جميع جهاتها مئتا شبر واثنان وسبعون شبراً ، وهي مؤزرة بالرخام البديع النحت ، الرائع النعت ، وينتهي الإزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيراً ، وعليه من الجدار المكرّم ثلث آخر قد علاه تضميخ المسك والطيب . . . والذي يعلوه من الجدار شبابيك عود ، متصلة بالسمْك الأعلى ، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بسمْك المسجد . وإلى حيّز إزار الرخام تنتهي الأستار ، وهي لازوردية اللون . . . وفي الصفحة القبلية أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسمارُ فضة ، هو أمام الوجه الكريم ، فيقف الناس أمامه للسلام ، وإلى قدميه صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ورأس عمر الفاروق مما يلي كتفي أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم ، فيسلم ، ثم ينصرف يميناً إلى وجه أبي بكر ، ثم إلى وجه عمر . وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلا معلقة من الفضة ، وفيها اثنان من ذهب . وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم ، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة ، وهو مرخّم كله وارتفاعه نحو القامة أو أزيد ، وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجه ثمانية ، وله باب على هيئة الشباك مقفل ، يفتح يوم الجمعة ، وطوله أربعة أشبار ونصف ، والمنبر مغشّى بعود الآبنوس ، ومقعد الرسول صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر ، قد طُبق عليه بلوح من الآبنوس غير متصل به ، يصونه من القعود عليه ،

فيُدخل الناس أيديهم إليه ويتمسحون به تبركاً بلمس ذلك المقعد الكريم . . . وطول المسجد الكريم مئة خطوة وست وتسعون ، وسعته مائة وست وعشرون خطوة ، وعدد سواريه مئتان وتسعون . . . والبلاط المتصل بالقبلة تحف به مقصورة تكتنفه طولا من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها . وبينها وبين الروضة الكبيرة والقبر المقدس محمل كبير مدهون ، عليه مصحف كبير فى غشاء ، مقفل عليه ، هو أحد المصاحف الأربعة التى وجَّه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى البلاد . وبإزاء المقصورة إلى جهة الشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك . . . ويليها فى البلاط الثانى لجهة الشرق أيضاً دفة مطبقة على وجه الأرض مقفلة ، هى على سرداب يُهْبَطُ إليه على أدراج تحت الأرض ، يفضى إلى خارج المسجد ، إلى دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو كان طريق عائشة إليها . وبإزائها دار عمر بن الخطاب ودار ابنه عبد الله رضى الله عنهما . . . وأمام الروضة المقدسة صندوق كبير هو للشمع والأتوار التى توقد أمام الروضة كل ليلة . وفى الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود ، هو موضع مبيت بعض السَّدَنة الحارسين للمسجد المبارك . والمؤذن الراتب فى المسجد أحد أولاد بلال رضى الله عنه . وفى جهة جوف الصحن قبة كبيرة محدَثة جديدة ، تعرف بقبة الزيت ، هى مخزن لجميع آلات المسجد المبارك وما يحتاج إليه فيه . . . ونصف جدار القبلة الأسفل رخام . . . مختلف الصنعة واللون ، مجزَّع أبدع تجزيع ، والنصف الأعلى من الجدار مزين كله بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء ، قد أنتج الصناع فيه نتائج من الصنعة غريبة . تضمنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات ، مائلة الأغصان بثمرها ، والمسجد كله على تلك الصفة ، لكن الصنعة فى جدار القبلة أحفل . . . وللمسجد المبارك تسعة عشر باباً ، لم يبق منها مفتوحاً سوى أربعة فى الغرب ، منها اثنان يعرف واحد بباب الرحمة والثانى بباب الخشية ،

وفى الشرق اثنان ، يعرف واحد بباب جبريل عليه السلام والثانى بباب الرجاء . ويقابل باب جبريل دار عثمان رضى الله عنه . . . وأمام الروضة المكرمة شباك حديد مفتوح إليها ، تتنسم منه روحاً وريحاناً . . . »

ويصف لنا ابن جبير مشاهد المدينة ، كما يصف مجلس وعظ بالمسجد النبوى ، وسرعان ما يترك يثرب فى اليوم الثامن من شهر المحرم ميمماً شطر العراق .

٤

فى العراق والشام

ويرسم لنا ابن جبير الطريق إلى الكوفة بمنازله ومناهله رسماً بارعاً ، ثم يأخذ فى رسم المدن العراقية بادئاً بالكوفة وما يزال فى رسومه وحديثه عن البلاد التى يهبط بها حتى يصل إلى بغداد فى الثالث من صفر سنة ثمانين . وأفرد لهذه المدينة فصلا طويلا ، ومما جاء فيه :

« هذه المدينةالعتيقة ، وإن لم تزل حضْرَة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية ، قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا شهير اسمها ، وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها ، والتفات أعين النوائب إليها ، كالطلل الدارس ، والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعى من المستوفز (المتعجل) العقلة (الوقوف) والنظر ، إلا دجلتها التى هى بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لَبَّتَيْنِ » .

وتحامل على أهل بغداد تحاملا شديداً فقال فيهم : « لا تكاد تلقى منهم إلا من

يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء ، يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء ، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء . قد تصور كل منهم فى معتقده وتخلده أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون فى معمور البسيط مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم . . . يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً ، وما منهم من يحسن لله فرضاً ، فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه ، وعلى يدى مخسر للميزان تعرضه ... والغريب فيهم معدوم الإرفاق ، متضاعف الإنفاق ، لا يجد من أهلها من يهش إليه هشاشة انتفاع واسترقاق . »

وهذا عنف فى الذم ، وهو ذم يعود — فى أغلب الظن — إلى أسباب شخصية ، وينبغى للمؤرخ أن يتخلى عن هواه حين يحكم على قوم من الأقوام . ولم نورد كلام ابن جبير على وجهه ، ففى هذا ما يغنى عن جميعه ، ومع ذلك فهو يستثنى بعد كل هذا الذم واللوم ، فيقول :

« أستغفر الله إلا فقهاءهم المحدثين وعاظهم المذكرين ، لا جرم أن لهم فى طريقة الوعظ والتذكير ، ومداومة التنبيه والتبصير ، والمثابرة على الإنذار المخوف والتحذير ، مقامات (مجالس) تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحبط كثيراً من أوزارهم ، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ، ويمنع القارعة (النكبة) الصماء أن تحل بديارهم ، لكنهم معهم يضربون فى حديد بارد ، ويرومون تفجير الجلامد » .

ويصف مجالس مختلفة لعالم كبير من علماء بغداد هو رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية ، ويقول فى مجلس من مجالسه :

« كان مجلسه مجلس علم ووعظ ، وقوراً هيناً ليناً ، ظهرت فيه البركة

والسكينة ، ولم تقصر عن إرسال عبرتها فيه النفس المستكينة ، ولا سيما آخر مجالسه فإنه سرت حُميًّا وعظه إلى النفوس حتى أطارتها خشوعاً ، وفجرتها دموعاً ، وبادر التائبون إليه سقوطاً على يده ووقوعاً ، فكم ناصية جزّ ، وكم مفصل من مفاصل التائبين طبّق بالموعظة وحزّ . وبمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترْحَم العصاة ، وتتغمّد الجناة ، وتستدام العصمة والنجاة . »

واستمعَ أيضاً إلى ابن الجوزى إمام عصره فى الحديث والوعظ ، وراعه بيانه وما يلقى فى الأسماع من درر لفظه الآخذة بمجامع القلوب ، وفى وصف خطبة له يقول :

«أتى فيها برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر ، طارت لها القلوب اشتياقاً ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، إلى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النّشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح . فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابةً وندامة ، ويذكّرها هول يوم القيامة ، فلو لم نركب ثَبَجَ البحر ، ونعتسف مفازات القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة ، والوجهة المفلحة الناجحة . »

ويقول إن مجلس ابن الجوزى كان يبتدئ بقراءة القرآن ، وكان ينشد فيه الأشعار التى تشعل القلوب وجداً ، والانفعال قد أثر فيه ، ويكاد يمنع خروج الكلام من فيه . ويعود بنا إلى وصف بغداد ومبانيها ومحالّها وأسواقها ، ثم يغادرها إلى الموصل فى الخامس عشر من صفر ، ويصف لنا بلدان الموصل بلدة بلدة ، ثم يتحول إلى الشام وينزل حلب ، وقد أعجب بمبانيها وحصونها ، ومن قوله فيها :

« بلدة قدرها خطير ، وذكرها فى كل زمان يطير . . . لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير فى القلاع ، تنزهت حصانةً أن ترام أو تستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة

الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء . . . ومن كمال خلالها المشترطة فى حصانة القلاع أن الماء بها نابع ، وقد صُنع عليه جبّان ، فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر ، والطعام يصير فيها الدهرُ كله ، وليس فى شروط الحصانة أهم ولا آكدُ من هاتين الخلتين . ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان . . . ويعترض دونهما خندق . . . وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة ، فيها العلالىّ (الغرف العليا) المنيفة ، والقِصاب (الدور) المشرفة . . . وأما البلد فموضعه ضخم جدا حفيل التركيب بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة . تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى ، إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية . وكلها مسقف بالخشب ، وسكانها فى ظلال وارفة ، وكل سوق منها تقيّد الأبصار حسناً ، وتستوقف المستوفز تعجباً . وأما قَيْسَارِيتها فحديقة بستان نظافةً وجمالا ، مطيفة بالجامع المكرّم . . . وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتّح كله أبواباً مغربة الحسن إلى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين باباً ، فيستوقف الأبصار حسن منظرها ، وفى صحنه بئران معينان . . . ويتصل به من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة ، فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى . . . ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلىّ مفتح كله بيوتاً وغرفاً . . . وقد امتد بطول الجدار عريش كرْم مثمر عنباً . . . وللبلدة سوى هذه المدارس نحو أربع مدارس أو خمس ، ولها مارستان . »

ويترك حلب إلى حماة وحمص ، ويصل إلى دمشق فى يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول ويستهل حديثه عنها بهذا المديح الرائع :

« جنةُ المشرق ، ومطلع حسنه المؤنّق المشرق ، وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استقرأناها ، وعروس المدن التى اجتليناها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين ،

وتجلت فى حلل سندسية من البساتين ، وحلّت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت فى منصتها أجمل تزيين ... ظلٌّ ظليل ، وماء سلسبيل ، تنساب مذانبه انسيابَ الأراقم (الحيات) بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صَقيل ، وتناديهم : هلموا إلى معرّس للحسن ومَقيل ، وقد سئمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت إلى الظماء ، فتكادتناديك بها الصم الصِّلاب : اركض برجلك ، هذا مُغْتَسَل بارد وشراب . قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قَيْدُ النظر ، ولله صدقُ القائلين عنها : إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها ، وإن كانت فى السماء فهى بحيث تُسامتها (تقابلها) وتحاذيها » .

و يأخذ فى وصف جامعها العجيب ، ويتحدث عن أبوابه وحيطانه وما عليها من نقوش وتصاوير ، كما يتحدث عن مقاصيره وعمده وقبابه ومحاريبه وشمسياته وما به من بديع البناء وغرائب الحلى . ثم يتحدث عن مشاهد دمشق وأبوابها وأسواقها ومدارسها ومارستانها مشيداً بكل ذلك كما يشيد بما فيها من رُبُطٍ وخوانق للمتصوفة ، وفى هذه الخوانق يقول :

« هى قصور مزخرفة يطّرد فى جميعها الماء على أحسن منظر يُبْصَرُ ، وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفَرَّغ خواطرهم لعبادته من الفكر فى أسباب المعايش ، وأسكنهم فى قصور تذكّرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيمُ الدنيا والآخرة ، وهم على طريقة شريفة ، وسُنّة فى المعاشرة عجيبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع (أناشيد المتصوفة فى الحب الإلهى) المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا فى تلك الحالات المنفعلُ المتأثر

رقة وتشوقاً . . . ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب (طلب العلم) فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً ، وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم . »

وفى هذا الوقت الذى زار فيه دمشق كانت الحرب قائمة على قدم وساق بين صلاح الدين والصليبيين ، ولاحظ ابن جبير أن تجار الطرفين يغدون ويروحون فى الدارين : دار الإسلام ودار الصليبيين بدون أى صعوبة تقوم فى سبيلهم ، يقول :

« ومن أعجب ما يحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان وتقع المصافّ (الحرب) بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . . . واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكّة كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يُعْتَرض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون فى بلاد المسلمين على سلَعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس فى عافية » .

وأشاد هنا بأعمال صلاح الدين وآثاره فى الشام وانتصاراته على الصليبيين ، وندخل معه فى شهر جمادى الآخرة وقد عزم على السفر إلى عكاء ليلتمس ركوب البحر مع تجار النصارى فى مراكبهم المعدة لسفر الخريف ، ويصل إليها فى اليوم العاشر من الشهر المذكور ، ومن حديثه عنها :

« هى قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحطّ الجوارى (السفن) المنشآت فى البحر كالأعلام ، مرْفأ كل سفينة ، والمشبهة فى عظمها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سِككها وشوارعها تغصّ بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الأقدام . . . انتزعها

الإفرنج من أيدى المسلمين فى العشر الأول من المائة السادسة ، فبكى لها الإسلام ملء جفونه ، وكانت إحدى شجونه » .

وسمع بمركب تقوم من الإسكندرونة،فذهب إليها مارا « بصور »، وفيها رأى عُرْساً لبعض الصليبيين ، فوصفه فى دقة على هذا النحو :

« ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدَّث بها زفاف عروس شاهدناه بصور فى أحد الأيام عند مينائها ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوى أرحامها ، وهى فى أبهى زى وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب ، قد حفتْ بشبكة ذهب منسوجة وعلى لَبَّتها (أعلى صدرها) مثل ذلك منتظم، وهى رافلة فى حُليها وحُللها ، تمشى فتراً فى فتر ، مَشْيَ الحمامة أو سيرَ الغمامة ، وأمامها جِلّة رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم البهية ، تسحبُ أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى أنفس الملابس، ويَرْفُلْنَ فى أرفل الحلى، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد غدوا فى طريقهم سماطين ، يتطلعون فيهم ، ولا ينكرون عليهم ذلك ،فساروا بها حتى أدخلوها دار بَعْلها ، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة » .

ولا يُهيّأ لابن جبير السفر من صور ولا من الإسكندرونة ، فيعود إلى عكة ، ويجد سفينة مبحرة إلى مسّينة إحدى ثغور جزيرة صقلية ، فيبحر فيها عائداً إلى بلاده .

٥

العودة إلى الوطن

ويركب البحر فى الثامن من رجب سنة ٥٨٠هـ، ويأخذ فى وصف البحر ورياحه وعواصفه . وما زالوا فيه حتى أهلّ عليهم شعبان ، وتملكه اليأس أن يرجع إلى دياره ، ولم يلبث أن لمع له بريق الأمل حين مرت السفينة بجزيرة كريت (إقريطش) فاستشعر الأنس وغلب رجاؤه اليأس ، ثم عاوده الخوف حين هبت على المركب بعض العواصف ، وهو فى كل ذلك يبدع فى الوصف والتصوير على نحو ما نرى فى هذه القطعة :

« وفى النصف من ليلة الأحد الحادى عشر من شعبان انقلبت الريح غربية ، وجاءت عاصفة ، وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائجه ، وماج مائجه ، فرمى بموج كالجبال ، يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عِظَمه ، تقلب الغصن الرطيب ، وكان كالسور علوًّا . . . ولما جن الليل اشتد تلاطمه ، وصكت الآذان غمَاغمه ، واستشرى عصف الريح ، فحُطّت الشُّرُع ، واقتصر على الدّلاَلين الصغار دون أنصاف الصوارى . ووقع اليأس من الدنيا ، وودّعنا الحياة بسلام ، وجاءنا الموج من كل مكان ، وظننا أننا قد أُحيط بنا ، فيا لها ليلةً يشيب لها سودُ الذوائب ، مذكورة فى ليالى الشوائب ، مقدمة فى تعداد الحوادث والنوائب . ونحن منها فى مثل ليل صول (ليلة ذكرها شاعر قديم) طولا ، فأصبحنا ولم نكد . وكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا ، وجباله قد قامت أمامنا ، وكنا قد خلفناه عن يميننا ، فأسقطتنا الريح عن مجرانا ،

ونحن نظن أنا قد جُزْناه وسُقِط في أيدينا ، وخالفنا المجرى المعهود الميمون . . . واستسلمنا للقدر ، وتجرعنا غُصَص هذا الكدر ، وقلنا :

سـيكون الذى قُضِي سَخِطَ العبدُ أو رَضِي

. . . والحذرَ الحذر ، من ركوب مثل هذا الخطر ، وإن كان المحذور ، لا يغنى عن المقدور شيئاً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

وأخيراً وصلت السفينة إلى مَسِّينة بصقلية ، فى اليوم الثالث من رمضان ، بعد مكابدات ومشقات . وعجب ابن جبير من سلامته ، وحمد الله على ما منّ به ، من لطيف صنعه . ثم أخذ فى وصف هذه المدينة ، فقال إنها :

« مقصد جوارى (سفن) البحر من جميع الأقطار ، كثيرة الإرفاق برخاء الأسعار . . . تَغَصّ بقاطنيها ، وتكاد تضيق ذَرْعا بساكنيها ، مملوءة نَتَناً ورِجْساً ، موحشة لا توجد للغريب أنسا ، أسواقها نافقة حفيلة ، وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة ، لا تزال بها ليلك ونهارك فى أمان ، وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان ، مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها وخناديقها ، والبحر يعترض أمامها فى الجهة الجنوبية منها . ومرْساها أعجب مراسى البلاد البحرية ، لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه ، وتُنْصَبُ منها إلى البرّ خشبةٌ يتصرّف عليها ، فالحمّال يصعد بحمله إليها ، ولا يحتاج لزواريق فى وَسْقها ولا فى تفريغها ، إلا ما كان مرسياً على البعد منها يسيراً ، فتراها مصطفّة مع البر كاصطفاف الجياد فى مرابطها وإصطبلاتها ، وذلك لإفراط عمق البحر فيها » .

وأخذ يتحدث عن صقلية ، ومعروف أن المسلمين فتحوها منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الملادى) وظلوا فيها إلى أن فتحها النورمان سنة ١٠٩١ للميلاد وكان ملوكهم الأول يعاملون المسلمين معاملة حسنة ، وتقدم أن الإدريسى ألف كتابه « نزهة المشتاق » لملكهم روجَر الثانى واستعان هو وابنه غليوم فى القرن

الثانى عشر الميلادى بالعرب فى الزراعة والتجارة والملاحة ، وفسحا لهم فى الحياة ، وتركا لهم حريتهم الدينية . واليوم يزور ابن جبير الجزيرة فى عهد غليوم سنة ١١٨٤ للميلاد ، ويشهد رفقه بالمسلمين ، ويشيد به وبسياسته ، وينوه باستخدامه العرب فى الوظائف والمهن المختلفة ، ومن قوله فيه :

« هو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن إليهم فى أحواله والمهمّ من أشغاله ، حتى إن الناظر فى مطبخه رجل من المسلمين . . . ومن عجيب شأنه المتحدّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته — على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به — الحمد لله حق حمده ، وكانت علامة أبيه : الحمد لله شكراً لأنعمه . وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ، ومن أعجب ما حدثنا به خديمه ، وهو يحيى بن فتيان الطراز : أن الإفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره ، فتعود مسلمة ، تُعيدها الجوارى المذكورات مسلمة ، وهن على تكتّم فى ذلك كله ، ولهن فى فعل الخير أمور عجيبة . . . وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون ، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجّراً ، ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلفاً . . . ولهم فى فعل الجميل أخبار مأثورة ، وفى افتكاك الأسرى صنائع عند الله مشكورة ، وجميع خدمتهم على مثل أحوالهم . ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم ، فيحين وقت الصلاة ، فيخرجون أفراداً من مجلسه ، فيقضون صلاتهم » .

ويتنقل بنا ابن جبير فى الجزيرة بعينه الراصدة يحكى الآثار وأحوال المسلمين والمسيحيين ، متحدثاً عن الخصب المبثوث فى ربوعها وما تحظى به من موارد غنية ، ونصل معه إلى حاضرتها «بالرم» ويصفها وسكانها على هذه الشاكلة :

« هى بهذه الجزيرة أمّ الحضارة ، والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة ، فما شئت بها من جمال منظر ومخبر ، ومرَاد عيش يانع أخضر ، عتيقة أنيقة ،

مشرقة مونقة، تتطلع بمرأى فتّان ، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان ، فسيحة السكك والشوارع ، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع ، عجيبة الشأن ، قُرْطُبيّة البنيان ، ومبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذّان ، يشقها نهر معين ، ويطرد فى جنباتها أربع عيون ، قد زُخْرِفت فيها لملكها دنياه ، فاتخذها حضرة ملكه الإفرنجى أباده الله ، تنتظم بلبّتها قصوره انتظام العقود فى نحور الكواعب ، ويتقلّب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب ، فكم له فيها — لا عمرت به — من مقاصير ومصانع ، ومناظر ومطالع . وكم له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها ، ورفّه بالإقطاعيات الواسعة رُهْبانها . . . وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان ، يعمرون أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض (أحياء) قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها . ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم . ويصلّون الأعياد بخطبة . دعاؤهم فيها للخليفة العباسى ، ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم . وجامع يجتمعون للصلاة فيه ، ويحتفلون فى وقيده (إنارته) فى هذا الشهر المبارك . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن . وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ولا أبنائهم . . . وزىّ النصرانيات فى هذه المدينة زىّ نساء المسلمات ، فصيحات الألسن ، ملتحفات ، مُنْتَقِبات يلبسن ثياب الحرير المذهب ، ويلتحفن اللحف الرائقة ، وينتقبن بالنقب الملونة ، وينتعلن الأخفاف المذهبة ، . . . يبرزن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر » .

وكل هذه ملاحظات دقيقة ، ولاحظ قبلا أن غليوم يتخذ بيت حريم على طريقة ملوك المسلمين ، وهو الآن يلاحظ أن نساءهم يتخذن زى المسلمات ، ويتحجّبن مثلهن ، ويتعطّرن ويتخضبن ويتزين على طريقتهن

كما يلاحظ أن التجارة فى « بالرم » كانت لا تزال بأيدى المسلمين . وقد شكا من أنهم يضطهدون أحياناً وأن كثيراً منهم كان يكتم إسلامه ، وأن بعضاً تنصّروا . وقد أخذت تدل الدلائل كما لاحظ الرحالة الأندلسى على أن راية الإسلام لا بد أن تنكّس هناك وأن يصبح ماله من مساجد ومعالم أثراً بعد عين ، وكأنما كان سقوط صقلية فى أيدى النورمان مقدمة لما أصاب العرب فى الأندلس ، فقد خرجوا منها بعد سقوطها بأربعة قرون ، مخلفين وراءهم تاريخاً حافلا بأمجاد حضارية باهرة .

وأبحر ابن جبير من صقلية فى اليوم التاسع من ذى الحجة ، وعاودته عواصف البحر ورياحه الهوجاء ، وبعد تعب مضْن وصل إلى قرطاجنة على الشاطئ الأندلسى فى الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م وتابع السير إلى غرناطة ، وانتهى إليها فى الثانى والعشرين من هذا الشهر . فكانت مدة رحلته سنتين وثلاثة أشهر ونصفاً . وعاوده الحنين إلى الشرق ، فرحل إليه رحلتين ، وتوفى بثانيتهما فى الإسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م وكان قد اعتزم أن يمضى فيها بقية حياته .

الفصل الخامس

رحلة ابن بطوطة

١

حياته وتجواله فى الآفاق

هو أبو عبدالله محمد بن محمد اللواتى الطَّنْجى، ويشتهر باسم ابن بَطُّوطة، ولد فى طنجة سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م لأسرة عُنيت بالعلوم الشرعية، وعُرفت بالبَسْطة فى العيش والسعة. واهتم أبوه بتربيته، فدرس الفقه والأدب، وأصبح حريًّا بأن يكون قاضياً مثل كثير من أهله، ولكن داعىَ الحج إلى البيت الحرام دعاه، فلبّاه، وخرج من بلده وهو فى الثانية والعشرين من عمره سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤ م.

وأخذ طريقه إلى مصر مع قافلة من قوافل الحجاج، وعرفوا فيه علمه وفقهه، فجعلوه قاضياً عليهم. ولما وصل إلى الإسكندرية طاف بمشاهدها وزار علماءها وعُبّادها، ومن بينهم شيخ يسمى برهان الدين نزل عنده فى ضيافته ثلاث ليال، ولمح فيه رغبته فى التجول بالبلاد، فقال له: أراك تحبّ السياحة فى الآفاق، فأجابه: نعم، ولم يكن خطَر بباله التوغل فى البلاد القاصية مثل الهند والصين، فقال له الشيخ: إنى أحمّلك السلام إلى إخوة لى فى الهند والسند والصين. فعجب من قوله. وبذلك ألقى الشيخ فى روعه التوجّه إلى تلك البلاد.

ويرحل عن الإسكندرية إلى القاهرة، ولكنه لا يذهب إليها مباشرة،

بل يطوف ببعض البلاد فى الوجه البحرى ، ويزور زوايا الصالحين والزهاد ، وممن زارهم ببلدة «فوّة» بالقرب من «رشيد» شيخ صالح يسمى أبا عبد الله المرشدى ، وبات على سطح زاويته ، فرأى فى منامه أنه على جناح طائر عظيم يطير به فى سَمْت القبلة يتيامن ، ثم يشرق ، ثم يذهب فى ناحية الجنوب ، ثم يبعد الطيران فى ناحية الشرق ، وينزل فى أرض مظلمة خضراء ، ويتركه بها . وقصّ رؤياه على الشيخ ، وسأله تأويلها . فقال له : سوف تحج وتزور النبى صلى الله عليه وسلم وتجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند ، وتبقى بها مدة طويلة .

وكان كل ذلك إرهاصا برحلاته الواسعة ، بحيث عُدّ أعظم رحّالة عرفه العرب فى تاريخهم الوسيط ، ووصل إلى القاهرة والفسطاط وطاف بهما وبآثارهما ومشاهدهما ، ثم أخذ طريقه إلى الصعيد فعَيْذاب على البحر الأحمر ، ولكنه وجد الطريق فيها إلى جُدّة معطلا ، لخروج قبائل البجاة على سلطان مصر ، فعاد إلى الفسطاط ، وأخذ طريقه فى صحراء سيناء إلى الشام وطاف ببلدانها ، ثم تحول إلى الحجاز وأدى فريضة الحج ، حتى إذا انتهى منها سافر إلى العراق مع قوافل الحجاج ، ونزل واسطَ والبصرة ، وألمّ ببعض المدن فى غربى إيران ، ثم دخل الكوفة وبغداد وبعض مدن الموصل ، وأدركه زمان الحج ، فأدى الفريضة مرة ثانية ، وأقام بمكة مدة . ثم ركب البحر إلى اليمن وطاف ببلدانها ، وتركها إلى إفريقية الشرقية ، عابراً البحر إليها ، ثم عاد إلى بلاد العرب ماراً بشواطئها الجنوبية حتّى الخليج الفارسى ، فزار ظفار وعمان والبحرين . ورجع إلى مكة فحج حجته الثالثة ، وولّى وجهه نحو مصر ، ثم تركها إلى الشام وآسية الصغرى ، وكان بها حينئذ السلاجقة وأمراء الدولة العثمانية الأُوَل . وأبحر من هناك إلى شبه جزيرة القرم ، وكانت تابعة لسلطان المغول محمد أوزبك ، وتنقل فى بلاده وفى القوقاز والبلغار ودخل القسطنطينية مع زوجة السلطان المذكور ، ويقول فى رحلته إنها بنت ملك الروم ، وقد ذهبت لزيارة أبيها ! .

ورحل بعد ذلك إلى خوارزم وبخارى ، ثم تحول إلى بلاد أفغانستان ، ومنها دخل الهند سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م ولقى حظوة عند سلطانها محمد شاه ، فولاه قضاء دهلى ، وأقام بها ثمانى سنوات . وأرسله السلطان مع وفد يحمل هدية إلى ملك الصين ، وركب البحر مع الوفد إلى قندهار ومنها إلى قاليقوط إحدى الثغور الهندية فى الغرب ، ومحطة السفن الذاهبة إلى الصين . وبينما كان على شاطئ الثغر هبت عاصفة أغرقت المركب والهدية . فلم يرجع إلى السلطان ، بل تنقل فى جزائر ذيبة المهل (المالديف) وتولى القضاء فيها عاماً وبعض عام ، ثم تركها إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال وركب البحر مارا بشبه جزيرة الملايو . وتنقل فى الصين مطلعاً على أحوال المسلمين هناك ، ثم رحل عنها مارا بسومطرة ، ونزل فى ظفار ، واتجه إلى بلاد العجم ، ثم تركها إلى ما بين النهرين وبلاد الشام ونزل مصر ، ثم رحل إلى عيذاب ، وأدى فريضة الحج للمرة الرابعة .

ثم رأى أن يعود إلى وطنه ، فمر بمصر ، ومنها أبحر إلى تونس ، فالجزائر ومراكش ، ووصل إلى فاس فى شعبان سنة ٧٥٠ هـ حيث حظى برعاية السلطان أبى عنان المرينى .

ورأى أن يزور الأندلس ، فرحل إليها رحلته الثانية ، ومر فى طريقه بمسقط رأسه : طنجة ، وطاف ببلدان الأندلس ، وزار غرناطة ، ثم عاد إلى فاس . ومنها قام برحلته الثالثة (٧٥٣ ــ ٧٥٤ هـ .) فزار بلاد السودان الغربى ، وتوغل فى مجاهل إفريقية المتوسطة ، ثم رجع إلى فاس حيث أمضى بقية حياته .

وأعجب السلطان أبو عنان بما يرويه من طرائف الأخبار وغرائب الأسفار ، فأمر كاتبه محمد بن جُزَىّ أن يروى عنه رحلته ، وعنى ابن جزى بذلك ، إذ كان أديباً بارعاً ، وأخرج الرحلة فى شكلها الذى نقرؤه الآن ، وسماها (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وقد

أضاف فيها إضافات لم ينقلها عن ابن بطوطة ، وإنما نقلها عن الراحلين قبله مثل ابن جبير . وأغلب الظن أن ما يتقدم وصف البلدان من بعض السجعات . إنما هو من عمل هذا الأديب . وما من شك فى أن مقدمة الرحلة المسجوعة من صنعه .

واهتم المستشرقون منذ أوائل القرن الماضى بهذه الرحلة . فنشروا منها قطعاً وأجزاء ، ثم نشرت كاملة مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٥٩ م وطبعت بعد ذلك فى القاهرة طبعات مختلفة ، وترجمت إلى الالمانية سنة ١٩١٢ م . وكل هذه العناية لما تحوى من طرافة حقيقية فى الخبر وقصه وفى الحكاية عن البلاد القريبة والبعيدة فى آسية وإفريقية .

ولم يترك ابن بطوطة بلداً نزل بها إلا وتحدث عن أهلها وسلطانها وعلمائها وقضاتها ، وبذلك كانت رحلته معرضاً كبيراً لحياة الأمم والأقاليم التى نزل بها من الوجهتين السياسية والاجتماعية . وكانت فيه نزعة دينية قوية ، فأطال الوقوف عند رجال الدين وأمور الإسلام وزوايا المتصوفة . ولن نستطيع أن نعرض رحلته فى كل الأقطار ، فقد طالت ، حتى استوعبت مجلدين كبيرين . ومن ثم رأينا أن نتابعه فى الأقاليم التى لم يزرها ابن جبير ، حتى لا نقع فى تكرار ما شاهده سلفه ، وحتى نطرف القارئ بأخبار بلاد جديدة .

٢

من الأناضول إلى بلاد المغول

رأينا ابن بطوطة بعد حجته الثالثة يقصد إلى مصر ثم يتركها إلى الشام ويدخل الأناضول أو آسية الصغرى . ويتجول فى بلدانها واصفاً آثارها ومساجدها

ومدارسها وحماماتها وأسوارها وسكانها ومتحدثاً عن سلاطينها، وكان لكل بلدة سلطان ينفرد بها من السلاجقة أو من العثمانيين الذين استطاعوا بعد رحلته أن يضموا هذه البلاد تحت لوائهم ، فكوّنوا دولتهم وفتحوا القسطنطينية ، وتوغلوا فى أوربة وأقاموا إمبراطوريتهم المعروفة .

وأول بلدة نزل بها «العلايا» ، وكانت ثغراً على بحر الروم بالقرب من الشام . وراعه فيها كما راعه فى غيرها من بلاد الأناضول نظامٌ لفتّوة تقوم على الكرم وإيواء الغريب ، وهم جماعة من الشباب فى كل بلدة يقيمون عليهم رئيساً لهم ، ويتخذون لأنفسهم مقرا ، يتعاونون فيه على البر بالضيف وإكرامه ، وندعه يصف ذلك بلسانه ، يقول :

« ذكرُ الأخيّة الفتيان : واحد الأخية أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه . وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية . ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظّلَمة . . والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجرّدين ويقدمونه على أنفسهم . وتلك هى الفتوة أيضاً . ويبنى زاوية، ويجعل فيها الفرش والسُّرُج وما يُحتاج إليه من الآلات . ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ، فإن ورَد فى ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف، وإن لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم، فأكلوا وغنّوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدوّ ، وأتوا بعد العصر إلى مقدّمهم بما اجتمع لهم . ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الأخى . ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان (من بلاد إيران) إلا أن هؤلاء أحبّ فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراماً وشفقة

عليه . وفى الثانى من يوم وصولنا إلى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى (رفيق له) وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه . وكان عليه أثواب خلَقة ،وعلى رأسه قلنسوة لبد (صوف) فقال لى الشيخ : أتعلم ما يقول الرجل ؟ فقلت : لا أعلم ما قال ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك ، فعجبت منه ، وقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه . فضحك الشيخ ، وقال لى : هذا أحد شيوخ الفتيان الأخية ، وهو من الخرازين (إسكافى) وفيه كرم نفس، وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل . فلما صليتُ المغربَ عاد إلينا ذلك الرجل، وذهبنا معه إلى زاويته، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان،وبها الكثير من ثُرَيَّات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس وله أرجل ثلاث . وفى وسطه أنبوب للفتيلة ، ويُملأ من الشحم المذاب،وإلى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم ، وفيها مقراض لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكّل بها ، ويسمى عندهم الجراغجى . وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم الأقبية وفى أرجلهم الأخفاف . وكل واحد منهم متحزّم ، على وسطه سكين فى طول ذراعين . وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى طول ذراع وعرض إصبعين . فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ، ووضعها بين يديه . وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزرْدخانىّ (ضرب من الحرير) وسواه حسنةُ المنظر ، وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقربنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا فى الغناء والرقص ، فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم . وانصرفنا عنهم آخر الليل ، وتركناهم بزاويتهم » .

وكان ابن بطوطة كلما نزل ببلدة من بلاد الأناضول سأل عن الأخية ، وكانوا أحياناً لا ينتظرونه حتى يسأل عنهم ، بل يتقدمون إليه ، وتتعارك جماعاتهم عليه . يقول فى بلدة « لاذق » بعد أن وصف غياضها وأهلها وما يصنعون من ثياب القطن المعلمة بالذهب :

« وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجال من حوانيتهم ، وأخذوا بأعنّة خيلنا ، ونازعهم فى ذلك رجال آخرون ، وطال بينهم النزاع ، حتى سلّ بعضهم السكاكين على بعض ، ونحن لا نعلم ما يقولون ، فخفنا منهم وظننا أنهم الجَرْمِيان الذين يقطعون الطرق وأن تلك مدينتهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا ، ثم بعث الله لنا رجلا حاجًّا يعرف اللسان العربى ، فسألته عن مرادهم منا ، فقال إنهم من الفتيان ، وإن الذين سبقوا إلينا أوّلاً هم أصحاب الفتى (أخى) سنان والآخرون أصحاب الفتى (أخى) طومان . وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم . فعجبنا من كرم نفوسهم ، ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة ، فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا ، فوقعت قرعة أخى سنان . وبلغه ذلك ، فأتى إلينا فى جماعة من أصحابه ، فسلموا علينا ، ونزلنا بزاوية له ، وأتى بأنواع الطعام . ثم ذهب بنا إلى الحمّام ، ودخل معنا ، وتولى خدمتى بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابى ، يخدم الثلاثة والأربعة الواحدَ منهم . ثم خرجنا من الحمام ، فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراءُ آيات من الكتاب العزيز . ثم أخذوا فى السماع والرقص . وأعلموا السلطان بخبرنا فلما كان من الغد بعث فى طلبنا بالعشىّ ، فتوجهنا إليه . . ثم عدنا إلى الزاوية ، فألفينا (الأخى) طومان وأصحابه فى انتظارنا ، فذهبوا بنا إلى زاويتهم ، ففعلوا فى الطعام والحمّام مثل أصحابهم ، وزادوا عليهم أن صبّوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ، ثم مضوا بنا إلى الزاوية ، ففعلوا أيضاً من الاحتفال فى الأطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الأكل ثم السماع والرقص

كمثل ما فعله أصحابهم أو أحسن ، وأقمنا عندهم بالزاوية أياماً » .

ويصف لنا سلطان كل بلدة ومَنْ حوله من الفقهاء والعلماء ، وما يمنحه من الهدايا والصلات ، ولا ينسى أن يقص علينا حكايات الصالحين وما يُؤْثَر عن بعض المتصوفة هناك . وندعه يتحدث عن مشهد جلال الدين الرومى أعظم شعراء الإسلام المتصوفين ، وقد ألم بقبره فى مدينة «قونيّة» وسمع عنه بعض حكاياته :

« بهذه المدينة تُرْبة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا ، وكان كبير القدر . وبأرض الروم طائفة ينتمون إليه ويعرفون باسمه ، فيقال لهم الجلالية ، كما تعرف الأحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان . وعلى تربته زاوية عظيمة ، فيها الطعام للوارد والصادر . يُذْكَرُ أنه كان فى ابتداء أمره فقيهاً مدرساً ، يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بقونية ، فدخل يوماً إلى المدرسة رجل يبيع الحلواء ، وعلى رأسه طبق منها ، وهى مقطوعة قطعاً ، يبيع القطعة منها بفَلْس . فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ : هات طبقك ، فأخذ الحلوانى قطعة منه وأعطاها للشيخ ، فأخذها الشيخ بيده وأكلها . فخرج الحلوانى ، ولم يطعم أحداً سوى الشيخ ، فخرج الشيخ فى اتباعه ، وترك التدريس ، فأبطأ على الطلبة ، وطال انتظارهم إياه ، فخرجوا فى طلبه ، فلم يعرفوا له مستقرا . ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام ، وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسى المتعلق (ذو القافية الواحدة فى الشطرين) الذى لا يفهم ، فكان الطلبة يتبعونه ، ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر ، وألفوا منه كتاباً سموه المثنوى (اسم هذا الضرب من الشعر الفارسى) . وأهل تلك البلاد يعظّمون ذلك الكتاب ، ويعتبرون كلامه ، ويعلمونه ، ويقرأونه بزواياهم فى ليالى الجمعات » .

وما زال ينتقل بين زوايا الأخيات فى الأناضول حتى انتهى إلى « صَنوب» على البحر الأسود ، وركب البحر منها إلى ثغر الكورش فى شبه جزيرة القرم ، وتحول عنها إلى مدينة القرم ، وكانت تابعة للسلطان محمد أوزبك خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية ، وكانوا قد دخلوا فى الإسلام ، بعد غاراتهم المشهورة على العالم الإسلامى بقيادة هولاكو مخرب بغداد ، ولولا وقوف جيوش مصر بقيادة

الظاهر ببيبرس في وجوههم وهزيمتهم لهم لَعَمَّ طوفانهم العالم الإسلامى .

وأكرمَ حاكم القرم ابن بطوطة وصحبه ، ودعاهم إلى مرافقته لزيارة السلطان محمد أوزبك بحاضرته ، ولبى الدعوة ابن بطوطة ، واستخدم فى ذهابه إليه ضربا من العربات تجرها الجياد كانوا يستخدمونه فى أسفارهم ، ووصفها بقوله :

« هى عجلات ، تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ، ومنها ما يجرّه فرسان ، ومنها ما يجرّه أكثر من ذلك ، وتجرها أيضاً البقر والجمال على حال العربة فى ثقلها أو خفتها . والذى يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التى تجرّها ، ويكون عليها سَرْج ، وفى يده سوط يحركها للمشى ، وعود كبير يصوّبها به إذا عاجتْ عن القصد . ويُجْعَلُ على العربة شبه قبة من قضبان خشب ، مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهى خفيفة الحمل وتكسى باللبد (الصوف) أو بالملف (الجوخ) . ويكون فيها طيقان مشبكة ، ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ، ويأكل ، ويقرأ ، ويكتب ، وهو فى حال سيره . والتى تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا ، وعليها قفل . وجهزتُ لما أردت السفر عربة لركوبى مغشاة باللبد ، ومعى بها جارية لى ، وعربة صغيرة لرفيقى عفيف الدين التُّوزَرىّ ، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من الجمال ، يركب أحدها خادم العربة » . ولم يكن السلطان فى حاضرته ، التى تسمى (السرا) شمالى بحر خوارزم ، وإنما كان معسكراً بالقرب منها فى موضع يقال له (بَنْش دَغ) أى الجبال الخمسة . ووصف جيشه بأنه يشبه مدينة عظيمة تسير بأهلها ، ففيه المساجد والأسواق والمطابخ ، وكل ذلك تحمله العربات ، حتى إذا نزلوا مكانا أزالوا البيوت عن العربات وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت. ودخل على السلطان محمد أوزبك ، وأعجب بمجلسه الذى كان يتخذه فى كل يوم جمعة بعد الصلاة ، يقول :

« إنه يجلس فى قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة، وقوائمه فضة خالصة، ورءوسها مرصعة بالجواهر، ويقعد السلطان على السرير، وعلى يمينه الخاتون (زوجته) طَيْطُغْلى، ويليها الخاتون كَبَك، وعلى يساره الخاتون بَيَلُون ، وتليها الخاتون أُرْدُجى . ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك ، وعن الشمال ولده الثانى جان بك . وتجلس بين يديه ابنته إيت كُجُجُك . وإذا أتت إحداهن قام لها السلطان، وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير . وأما طيطغلى وهى الملكة وأحظاهن عنده فإنه يستقبلها إلى باب القبة ، فيسلم عليها ، ويأخذ بيدها ، فإذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان . وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب . ويأتى بعد ذلك كبار الأمراء ، فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين وعن الشمال ، وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتى معه غلام بكرسيه . ويقف بين يدى السلطان أبناء الملوك من بنى عمه ، وإخوته وأقاربه . ويقف فى مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال . ثم يدخل الناس للسلام ، الأمثل فالأمثل ، ثلاثة ، ثلاثة ، فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد . فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهن » .

ويُفيض فى الحديث عن كل ملكة أو زوجة من زوجات السلطان وجواريها ومماليكها ، ويحدثنا عن عطفهن عليه ، ثم يذكر أنه رغب فى زيارة مدينة بلغار فى حوض نهر الفولجا الأوسط ، وعرف السلطان رغبته فأرسل معه من هداه الطريق . وقد حاول أن يدخل فى إقليم ويسوا ويورا شمالى البلغار إلى المحيط المتجمد الشمالى، ويسميه أرض الظُّلْمة ، ثم أضرب عن ذلك لعظم المئونة فيه، ومن طريف ما قاله عنه مما سمعه من الناس :

« السفر إلى هذه الأرض المظْلمة لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرّها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا يثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها ، والكلاب لها الأظفار ، فتثبت أقدامها فى الجليد . ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة ، أو نحوها ، موقَرة (محملة) بطعامه وشرابه وحَطبه ، فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مَدَر (حصا) . والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذى قد سار فيها مراراً كثيرة . وتنتهى قيمته إلى ألف دينار ونحوها . وتربَط العربة إلى عنقه ، ويقرنُ معه ثلاثة من الكلاب ، ويكون هو المقدّم ، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات ، فإذا وقف وقفت . وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ، ولا ينهره ، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بنى آدم ، وإلا غضب الكلب وفرّ وترك صاحبه للتلف . فإذا كملتْ للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة ، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك ، وعادوا إلى منزلهم المعتاد . فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم ، فيجدون بإزائه من السَّمُّور والسِّنْجاب والقاقم (أنواع من الفراء) . فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه ، وإن لم يرضه تركه ، فيزيدونه ، وربما رفعوا متاعهم ، أعنى أهل الظلمة ، وتركوا متاع التجار . وهكذا بيعهم وشراؤهم . ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم من الإنس ، ولا يرون أحداً . والقاقم هو أحسن أنواع الفراء ، وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار . . . وهى شديدة البياض من جلد حيوان صغير فى طول الشبر وذنبه طويل . . . والسَّمُّور دون ذلك تساوى الفروة منه أربعمائة دينار » .

وربما كان فى خبره عن بيع أهل الظلمة وشرائهم ضرباً من المبالغة . وقد عاد من مدينة البلغار إلى حضرة السلطان ، فأرسله مع إحدى زوجاته لزيارة أبيها ملك القسطنطينية ، كما يقول . وزار هذه البلدة وطاف فى البلاد

الواقعة بشمالها، ثم عاد إلى السلطان وكان فى حاضرته « السرا » ، وأشاد بهذه المدينة وبمبانيها واتساع رقعتها ، ونوه بشيخ فقيه فيها يسمى نعمان الدين الخوارزمى . وقال إن السلطان يزوره فى كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه ، ويقعد السلطان بين يديه، ويكلمه ألطف كلام ويتواضع إليه، والشيخ يترفع عليه. حتى إذا حضره الفقراء والمساكين تواضع لهم وكلمهم بألطف كلام، وأكرمهم .

ويشد ابن بطوطة الرّحال من حضرة هذا السلطان ، وينزل بغيره من سلاطين المغول فى التركستان ، ثم يخترق بلاد خراسان وأفغانستان إلى الهند . ويصف لنا كل بلدة ألم بها ، ويطرفنا بالحكايات عن الصالحين ، وعما يصله من هدايا القضاة والعلماء والسلاطين . ومن طريف ما ذكره عن السلطان طَرْمشيرين سلطان المغول فيما وراء النهر (التركستان) أنه حضرت صلاة العصر يوماً ولم يحضر إلى المسجد قبل الأذان للصلاة ، كعادته ، وجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها أمام المحراب الذى يصلى فيه ، وقال للإمام وكان اسمه حسام الدين : إن السلطان يريد أن تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ ، فقال الإمام : الصلاة لله أو لطرمشيرين؟ ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة . وجاء السلطان، وقد صلى الإمام ركعتين من صلاة العصر ، فصلى الركعتين الأخريين حيث انتهى به القيام ، وذلك فى الموضع الذى تكون فيه نعال الناس عند باب المسجد . وقام إلى الإمام ليصافحه ، وهو يضحك . .

٣

فى الهنـــد

وصل ابن بطوطة إلى الهند فى أول شهر المحرم سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م ، وكان سلطانها حينئذ محمد شاه ، وأخذ يتنقل فى البلاد التابعة له بالإقليم

المعروف باسم السند، وفيها رأى حيوان الكَرْكَدَّن ووصفه بأنه أسود اللون عظيم الجرم ، ضخم الرأس ، ولذلك يضربون به المثل هناك ، فيقولون رأس بلا بدن ، وهو دون الفيل ، ولكن رأسه أكبر من رأس الفيل وأعظم ، وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة أذرع وعرضه نحو شبر .

وعلى هذا النحو أخذت عين ابن بطوطة ترصد وتسجل كل ما بالهند من أنهار وأشجار وفواكه وحبوب ، كما أخذت ترصد وتسجل عادات البلاد والسكان وأمور ولاتهم وحكّامهم . وعلى سُنّته كلما نزل ببلدة اتصل بمن يسوسون أهلها من قِبَل السلطان وروى لنا ضيافتهم وحسن رعايتهم له ، وصور لنا مجالسهم ومواكبهم فى البر ونهر السند ، غير غافل عما هناك من مراسيم بين المسلمين . وراعه حرق الهندوس لموتاهم بالنار ، وتحريق النساء مع أزواجهن حين يموتون ، وتقربهم إلى إلههم بالغرق فى نهر الكنج المقدس ، وفى ذلك يقول :

« رأيت الناس يُهْرَعُون ومعهم بعض أصحابنا ، فسألتهم ما الخبر؟ فأخبرونى أن كافراً من الهنود مات وأجِّجت النار لحرقه ، وامرأته تحرق نفسها معه . ولما احترقا جاء أصحابى وأخبرونى أنها عانقت الميت ، حتى احترقت معه . وبعد ذلك كنت فى تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة ، والناس يتبعونها من مسلم وكافر ، والأطبال والأبواق بين يديها ومعها البراهمة ، وهم كبراء الهنود . وإذا كان ذلك ببلاد السلطان (يريد السلطان محمد شاه) استأذنوا السلطان فى إحراقها ، فيأذن لهم ، فيحرقونها . ثم اتفق بعد مدة أنى كنت بمدينة ، أكثر سكانها الكفار ، تعرف بأبجرى ، وأميرها مسلم . . . وعلى مقربة منها الكفار العصاة ، فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الأمير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعيته من المسلمين والكفار ، ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعيته الكفار سبعة نفر ، وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات ،

فاتفقن على إحراق أنفسهن . وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب ، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونُسبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة ، لعدم وفائها ، ولكنها لا تكرَه على إحراق نفسها . ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائى ذكرناهن على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا . وأتى إليهن النساء من كل جهة . وفى صبيحة اليوم الرابع أتيتْ كل واحدة منهن بفرس ، فركبته ، وهى متزينة متعطرة ، وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفى يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفّون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار (جمع نفير) وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغى السلام إلى أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى ، وهى تقول : نعم ، وتضحك إليهم . وركبت مع أصحابى لأرى كيفية صنعهن فى الاحتراق ، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال ، بين أشجاره أربع قباب ، فى كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الأشجار ، فلا تتخللها الشمس ، فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم أعاذنا الله منها . ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج وانغمسنَ فيه ، وجرّدن ما عليهن من ثياب وحلىّ ، فتصدقن به ، وأتيتْ كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فرُبط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها ، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض ، وصُبّ عليها زيت الجلجلان ، فزاد فى اشتعالها ، وهنالك نحو خمسة عشر رجلا ، بأيديهم حزَم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشبات كبار ، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة ، وقد حجبت النار بملحفة ،

يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها ، فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف ،وقالت لهم بالهندية وهى تضحك ما معناه : أبالنار تخوفوننى ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة ، ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأطبال والأنفار والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الخشُبَ من فوقها لئلا تتحرك ، وارتفعت الأصوات وكثُر الضجيج . ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسى لولا أصحابى تداركونى بالماء ، فغسلوا وجهى وانصرفت . وكذلك يفعل أهل الهند أيضاً فى الغرق ، يُغرق كثير منهم أنفسهم فى نهر الكنج ، وهو الذى إليه يحجون، وفيه يُرْمَى برماد هؤلاء المحرقين ، وهم يقولون إنه من الجنة . وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره : لا تظنوا أنى أغرق نفسى لأجل شىء من أمور الدنيا أو لقلة مال ، إنما قصدى التقرّب إلى كُسَّاى ، وكساى اسم الله عز وجل بلسانهم، ثم يغرق نفسه ، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده فى النهر المذكور » .

ونمضى معه،وهو يتنقل فى بلاد الهند حَفِيًّا به الأمراء والقضاة والفقهاء حتى نصل معه إلى دهلى (دلهى) ، ويصفها لنا وصفاً دقيقاً،ويقول إن سورها ليس له نظير ،فعرضُ حائطه إحدى عشرة ذراعاً ، وفيه بيوت يسكنها السُّمَّار (الحرس) وحُفَّاظ الأبواب، وفيه مخازن للطعام ومخازن للعدَد ومخازن للمجانيق . وأسفل هذا السور مبنىٌّ بالحجارة وأعلاه بالآجرّ ، وأبراجه كثيرة متقاربة . وفيه ثمانية وعشرون باباً . وأشاد بجامع دهلى وقال إن فيه ثلاث عشرة قبة ، وله أربعة من الصحون ، وفى وسطه عمود هائل ، وفى صحنه الشمالى صومعة لا نظير لها فى بلاد الإسلام ، ورأسها من الرخام الخالص ، وتفاحاتها (رءوس أعمدتها) من الذهب الخالص ، وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة . ويقول إن هذا الجامع كان بُدْخانه أى بيت أصنام، فلما فُتحت دهلى

سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩م حوّله الفاتحون إلى هذا المسجد العظيم .

ويعرض لنا ابن بطوطة بعض مزارات دهلي ويتحدث عن علمائها وعُبّادها ، ثم يخرج إلى حديث مفصل عن تاريخها منذ فتحها المسلمون ومن تملّكها من السلاطين حتى سلطانها الأخير محمد شاه . ويفرد فصولا طوالا للحديث عن هذا السلطان وقصره في دهلي ومجلسه ومراسيمه في هذا المجلس ، وقعوده للغرباء واهتمامه بهم وتوظيفه لهم في الوظائف الكبرى بسلطنته ، ويفيض في الحديث عما يسبغه عليهم من الإنعام وولاية الخطط الرفيعة ، ومما يقول في وصفه إنه « أحب الناس لإسداء العطايا وإراقة الدماء ، فلا يخلو بابه من فقير يَغْنَى أو حيّ يقتل ، وقد شُهرت في الناس حكاياته في الكرم والشجاعة وحكاياته في الفتك والبطش » ويكثر ابن بطوطة من الحكايات في الجانبين مصوراً غنى هذا السلطان وكثرة ما بخزائنه من الحلي والذهب . ونكتفي من ذلك بتصويره لاحتفاله بيوم العيد ، يقول :

« يُفَرَّشُ القصر يوم العيد ويزيَّن بأبدع الزينة ، وتُضْرَبُ الباركة على المشور (المجلس) كله ، وهي شبه خيمة عظيمة على أعمدة ضخام كثيرة ، وتحفها القباب من كل ناحية ، ويُصْنَعُ شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار ، ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور ، ويجعل بين كل شجرتين كرسيّ ذهب عليه مرتبة مغطاة ، وينصَبُ السرير الأعظم في صدر المشور ، وهو من الذهب الخالص كله ، مرصع القوائم بالجوهر ، وطوله ثلاثة وعشرون شبراً ، وعرضه نحو النصف من ذلك . وهو منفصل ، وتجمع قطعه ، فتتصل ، وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب ، وتجعل فوقه المرتبة . ويُرْفَعُ الشطر المرصّع بالجواهر على رأس السلطان . وعندما يصعد على السرير ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية : باسم الله ، ثم يتقدم الناس للسلام ، فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ وإخوة السلطان

وأقاربه وأصهاره ثم الأعزة (الغرباء) ثم الوزير ، ثم أمراء العساكر ، ثم شيوخ المماليك ، ثم كبار الأجناد . يسلم واحد إثر واحد من غير تزاحم ولا تدافع . . . وإذا فرغ الناس من السلام وُضع لهم الطعام على حسب مراتبهم . وتنصَبُ فى ذلك اليوم المبخرة العظمى ، وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة ، فإذا أرادوا اتصالها وصلوها . وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال ، وفى داخلها ثلاثة بيوت ، يدخل فيها المبخرون يوقدون العود . . . والعنبر الأشهب والجاوىّ حتى يعم دخانها المشور كله . ويكون بأيدى فتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صبا . . . ويأتى أهل الطرب فيغنين ويرقصن . ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر . . . ويعطى الصدقات ويكثر منها » .

وما نزال مع ابن بطوطة فى عرضه لمكارم السلطان وكثرة من فتك بهم من الأعوان متحدثاً عن كثير من شئونه وشئون رعيته . وأخيراً يحدثنا عن حياته فى دهلى فيذكر لنا أنه حين قدم عليها كان السلطان غائباً ، فاستقبله هو وصحبه الوزير خواجه جهان ، واحتفل بمقدمهم احتفالا كبيراً . ويقدم السلطان ، فيلقاه ويخلع عليه الخِلَع السنية والعطايا الجزيلة ، وينعم عليه بولاية القضاء فى عاصمته ، وتبتسم له الدنيا نحو ثمانى سنوات فى ظل هذه الوظيفة ورعاية السلطان ، ثم تحدث بينهما جفوة ، ويهم السلطان بإنزال جام غضبه عليه ، فيعتزل عمله ، ويخرج عن جميع ما ملكه للفقراء ، ويلزم بعض الزهاد ، وينقلب متعبداً صائماً يلبس ثياب الفقراء . ويعلم السلطانُ بما صار إليه ، فيعطف عليه ، ويرسله على رأس وفد بهدية إلى ملك الصين . ويأخذ طريقه إلى « قاليقوط » فى غربى الهند ليركب البحر منها إلى ثغور الصين ، ويحدثنا عما مر به من بلاد إلى هذا الثغر ، ويطرفنا من حين إلى آخر على عادته ببعض الحكايات أو ببعض عادات الهنود ، فمن ذلك حكايته عن

الشيخ محمد العريان القاطن بمصر ، فقد ذكر تلميذٌ زاهد له هناك عنه وكان يتسمى باسمه أنه :

«كان قائماً على قدم التجرُّد . . . وكان إذا صلَّى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقى بزاويته من طعام وإدام وماء وفرَّق ذلك على المساكين ، ورمى بفتيلة السراج وأصبح على غير معلوم . . . ومن حكاياته أنه لما وصل ملك التتر إلى الشام بعساكره ، وملك دمشق ما عدا قلعتها ، وخرج الملك الناصر (قلاوون) إلى مدافعته ، ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق . . . وكان الشيخ العريان فى صحبته نزل وأخذ قيداً ، فقيَّد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند اللقاء . فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين . فثبت الملك الناصر ، وهزم التتر هزيمة شنعاء . »

ويحدثنا عن انتشار السحر فى الهند واعتقاد أهلها فى أن السحرة هناك ويسمون الجوكية يتصورون فى صور الحيوانات ، ولعل هذا الاعتقاد شعبة من شعب الإيمان بالتناسخ . ومن طريف ما يقصه عن هؤلاء الجوكية أو السحرة أن السلطان محمد شاه بعث إليه يوماً ، فدخل عليه فوجد عنده رجلين منهم وهما يلتحفان بالملاحف ويغطيان رأسيهما ، وأمره السلطان بالجلوس فجلس ، فقال لهما : إن هذا الشخص من بلاد بعيدة ، فأرِياه من غريب صنعكما . وصدعا بأمره ، ولنترك ابن بطوطة يتم الحكاية بلسانه :

« فتربَّع أحدهما ، ثم ارتفع عن الأرض ، حتى صار فى الهواء فوقنا متربِّعاً ، فعجبت منه وأدركنى الخوف ، فسقطت إلى الأرض . فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده ، فأفقتُ وقعدت ، وهو على حاله متربع . فأخذ صاحبه نَعْلاً له من شكارة (جوالق صغير) كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمغتاظ ، فصعدتْ إلى أن علتْ فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب فى عنقه ، وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا . فقال لى السلطان : إن المتربع هو تلميذ

صاحب النعل . ثم قال : لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت . فانصرفت عنه ، وأصابنى الخفقان ومرضتُ ، حتى أمر لى بشربة أذهبتْ ذلك عنى » .

ونظن أن المرض الذى أصاب ابن بطوطة ليس إلا ضرباً من التنويم ، حتى خـيّـل إليه الساحر ما خيل ، وسنرى ساحراً آخر فى الصين ينوّمه أو يمرضه كما يقول .

٤

من قَـنْـدَهار إلى الصين

ركب ابن بطوطة البحر مع وفد السلطان محمد شاه من ثغر قندهار ، وكانت وجهتهم قاليقوط أكبر الثغور الهندية فى الغرب ، حيث تجتمع مراكب الصين واليمن وفارس ويلتقى تجار الآفاق ، وإنما اتجهوا إليها ، ليسافروا منها على بعض المراكب الصينية الكبيرة .

ولم يتجهوا إلى قاليقوط مباشرة ، بل ألموا بالثغور الهندية شماليها مثل هِـنَـوْر ، ووصف لنا شجرات الفلفل ، فقال إنها تشبه دوالى (عيدان) العنب ، وهم يغرسونها إزاء النارّجيل (جوز الهند) فتصعد عليها كصعود عيدان العنب على الأشجار ، وتثمر عناقيد صغيرة ، يقطفونها فى الخريف ، ويفرشونها على الحُـصر فى الشمس ، كما يصنع بالعنب ، ولا يزالون يقلبونها حتى يستحكم يُـبْـسُـها ، ثم يبيعونها للتجار . وانتهى إلى قاليقوط مع الوفد والهدية ، وأعـِدّ لهم جُـنْـك صينى (سفينة كبيرة) ليحملهم فى البحر ، ونقلتْ إليه الهدية ، ونزل فيه صحبه ، وتخلف هو قليلا على الشاطئ ، وتصادف

أن هبت ريح عاصفة أغرقت الجنك بمن فيه . وارتاع ابن بطوطة ، وصمم أن لا يعود إلى السلطان . ويمَّم نحو جزائر ذيبة المهل (ملديف) فى جنوبى الهند إلى الغرب . ومما يقوله فى وصفها :

« هذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا . وهى نحو ألفى جزيرة ، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة . لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه . . . وهى من التقارب بحيث تظهر رءوس النخل التى بإحداها عند الخروج من الأخرى . وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح . وهى منقسمة أقاليم ، على كل إقليم وال . وأكل أهلها سمك يسمونه قُلْب الماس . ولحمه أحمر ولا ذَفَر له . وإنما ريحه كريح لحم الأنعام . . . ومعظم أشجار هذه الجزائر النارَجيل (جوز الهند) وهو من أقواتهم مع السمك . . . وتتمر النخلة منها اثنى عشر عِذْقاً (كباسة أو سباطة كالعنقود) فى السنة . يخرج فى كل شهر عِذْق ، فيكون بعضها صغيراً وبعضها كبيراً ، وبعضها يابساً وبعضها أخضر ، هكذا أبداً . ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل . . . ويصنعون من عسله الحلواء ، فيأكلونها مع الجوز اليابس منه . ومن أشجارها الأترجّ والليمون والقلقاس . وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة . . . وفى كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة ، وأكثر عماراتهم الخشب ، وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار ، وأكثرهم يغتسلون مرتين فى اليوم تنظفاً لشدة الحرّ بها وكثرة العرق . ويكثرون من الأدهان العطرية . . . ولباسهم فُوَط ، يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوضَ السراويل ، ويجعلون على ظهورهم ثياباً كالمحرمين ، وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيراً عوضاً عنها . . . ومن عاداتهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته بسطتْ له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت ، وجُعل عليها غَرَفات من الوَدع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله ، وتكون المرأة واقفة

عند باب البيت تنتظره ، فإذا وصل إليها رمتْ على رجليه ثوباً يأخذه خدمه . وإن كانت المرأة هى التى تأتى إلى منزل الرجل بُسطت (فرشت) داره وجُعل فيها الودع ، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه . وكذلك عادتهم فى السلام على السلطان عندهم ، لابد من الثوب يرْمى عند ذلك . . . وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع ، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار ، فالماشى بها كأنه فى بستان . . . وصَرْفُ (نقد) أهل هذه الجزائر الودع . . . وهذا الودع أيضاً صرف السودان فى بلادهم . رأيته يباع بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبي . . . ونساؤها لا يغطين رءوسهن ، ويمشطن شعورهن ، ويجمعنها إلى جهة واحدة ، ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة ، وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها . . . وحليهن الأساور ، تجعل المرأة منها جملة فى ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق . . . والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء ، وأكثر الناس لا يسمى صداقاً . . . وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن . وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً ، ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن ، ولا تكلُ المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها ، بل هى تأتيه بالطعام ، وترفعه من بين يديه ، وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء . ومن عاداتهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . »

وألقى ابن بطوطة عصا ترحاله فى هذه الجزر لمدة سنة ونصف ، حظى فيها برضا السلطانة إذ كانت تحكم أهلها امرأة عاقلة كما حظى برضا وزيرها ، ولم يلبث أن ولى القضاء فيها ، وتزوج بها . وعاودته رغبته فى التجوال والفرجة على بلاد الصين ، فركب البحر إلى جزيرة سيلان ، وفيها رآهم يستخرجون الياقوت من الأرض ، وقال إنهم يجدونه فى أحجار بيضاء مشعبة ، ويكون

فى أجوافها فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت ، وهى مختلفة الألوان ، فمنها الأحمر والأصفر والأزرق . ومما عجب منه فى هذه الجزيرة كثرة القرود ، وقال إنها سود الألوان ، ولها أذناب طوال ، ولذكورها لحىً كالآدميين . ويقص علينا أنه رأى فى هذه الجزيرة الصخرة التى وضع آدم قدمه عليها ، وهى خرافة . وقد أودع ابن بطوطة رحلته كثيراً من هذه الخرافات ، ومما لاشك فيه أنه يبالغ أحياناً ، حتى يصبح الواقع ضرباً من ضروب الخيال .

ورحل عن سيلان إلى بلاد بنغالة فى الشمال الغربى للهند ، والتقى بسلطانها وقصّ علينا بعض الكرامات لشيخ هناك ، ثم توجه إلى سومطرة أو بلاد الجاوة ، وقصّ علينا طائفة من أحوالها ، ووصف بعض أشجارها مثل اللبان والكافور والعود الهندى والقرنفل ، يقول :

« وشجرة اللُّبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك ، وأغصانها كأغصان الخرشف (الخرشوف) وأوراقها صغار رقاق . . . واللبان صمغية تكون فى أغصانها . وأما شجر الكافور فهى قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور فى داخل الأنابيب . . . وأما العود الهندى فشجره يشبه شجر البلوط ، إلا أن قشره رقيق ، وأوراقه كأوراق البلوط سواء ، ولا ثمر له . . . وأما أشجار القرنفل فهى ضخمة . . . والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان ، والذى يسميه أهل بلادنا نَوْر القرنفل هو الذى يسقط من زهره ، وهو شبيه بزهر النارنج . وثمر القرنفل هو المعروف فى بلادنا بجوز الطيب . رأيت ذلك كله وشاهدته . »

ويرحل ابن بطوطة عن سومطرة أو أرض الجاوة كما يسميها ، ويُيَمِّمُ نحو الصين عن طريق البحر ، ويصل إلى ثغر الزيتون ويتنقل فى هذه البلاد التى طالما حلم بالفرجة عليها ، ومما يقول فيها :

« أهل الصين يعبدون الأصنام ، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود . وملك

الصين تترىّ من ذرية تنكيزخان . وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة (حىّ) للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم ، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها ، وهم معظّمون محترمون . وأهل الصين (من غير المسلمين) يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها فى أسواقهم . وهم أهل رفاهية وسَعة عيش ، إلا أنهم لا يحتفلون بمطعم ولا ملبس . . ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشى . والحرير عندهم كثير جدا ، لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها ، فلا تحتاج إلى كثير مئونة ، ولذلك كثر ، وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمة . ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير . وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً ، تكون القطعة منها قنطارا فما فوقه وما دونه . . . وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم . . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد (ضرب من الورق) كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان . . . وجميع أهل الصين إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطَّفَل عندنا ، ولونه لون الطفل ، تأتى الفيلة بالأحمال منه ، فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ، ويشعلون النار فيه ، فيتقد كالفحم ، وهو أشد حرارة من نار الفحم . . . ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخار، ويضيفون إليه حجارة سواه . وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً لها ، وذلك مشهور من حالهم ، قد وصفه الناس فى تصانيفهم ، فأطنبوا فيه . وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه من الروم ولا من سواهم ، فإن لهم فيه اقتداراً عظيما . ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ، ثم عدت إليها ، إلا رأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد ، موضوعة فى الأسواق . . . وتنتهى حالهم فى ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد وبُحِثَ عنه ، فحيثما وُجد شبه تلك الصورة أخذ » .

ووصف لنا ابن بطوطة نظامهم فى الجمارك وتفتيش السفن وأنهم يقيِّدون أسماء البحارة فى سفنهم ، حتى إذا عادت من رحلتها سألوا عن كل شخص انتظم فيها ، وإن لم يجدوا أحد الأشخاص طلبوا من رئيس المركب الدليلَ على أنه مات أو فرّ . ويقص علينا ابن بطوطة كثيراً من أحوال المسلمين فى البلاد الصينية المختلفة ، ويذكر أن فى كل بلد شيخاً للإسلام وقاضياً منهم يحكم بينهم ويبالغ فى الحفاوة التى كانوا يستقبلونه بها ، وقد أشاد بأسرة عثمان ابن عفان المصرى التى لقيها فى مدينة « خَنْسا » وهو تاجر مصرى استحسن هذه المدينة واستوطنها ، وأورث أبناءه فيها الجاه والحرمة . ومما أعجب به فى هذه البلاد بيوت يتخذونها لذوى العاهات ، وشاهد هناك ضروباً من السحر والشعوذة على نحو ما شاهد فى الهند بحضرة السلطان ، ومما يقصه من ذلك هذه الحكاية التى تشبه أن تكون خرافة :

« حضر أحد المُشَعْوِذة ، فأخذ كرة خشب لها ثقب ، فيها سيور طوال ، فرمى بها إلى الهواء ، فارتفعت حتى غابتْ عن الأبصار ، ونحن فى وسط المشور (مجلس الأمير) أيام الحرّ الشديد . فلما لم يبق من السير فى يده إلا يسيرٌ أمر متعلماً له ، فتعلق به وصعد فى الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا ، فدعاه ثلاثاً ، فلم يجبه ، فأخذ سكيناً فى يده كالمغتاظ ، وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضاً . ثم رمى بيد الصبى إلى الأرض ، ثم رمى برجله ، ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم بجسده ، ثم برأسه . ثم هبط وهو ينفخ وثيابه مطلخة بالدم . فقبل الأرض بين يدى الأمير وكلمه بالصينى ، وأمر له الأمير بشىء . ثم إنه أخذ أعضاء الصبى ، فألصق بعضها ببعض ، وركله برجله ، فقام سويا . فعجبت منه ، وأصابنى خفقان القلب ، كمثل ما أصابنى عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك ، فسقونى دواءً أذهب عنى ما وجدت . وكان القاضى فخر الدين إلى جانبى ، فقال لى : والله ما كان

من صعود ولا نزول ولا قطع عضو ، وإنما ذلك شعوذة » . ولعله ضرب من التنويم جعل ابن بطوطة يظن ذلك حقيقة واقعة . وبينما كان يطوف بالبلاد جاءته دعوة من ملكها لزيارته ، فرحل إلى مدينته « خانبالق » ووصف قصر الملك وأبوابه وديوانه ، وتصادف أن كان الملك مشغولا ببعض الفتن والحروب فعاد أدراجه إلى ثغر الزيتون ، ووجد بها جنكاً لسلطان جاوة الملك الظاهر ، فركبه ، ونزل عنده وأكرمه ، ثم صمم على أن يعود إلى بلاده ، ولكنه حين وصل إلى مصر رأى أن يحج إلى بيت الله الحرام ، فسافر إلى عيذاب على البحر الأحمر ومنها إلى مكة . فأدى الفريضة ، وعاد منها إلى مصر ، ولم يلبث أن أبحر إلى تونس ، ووصل إلى فاس سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م وأطنب في وصف سلطانها ومناقبه . ورحل رحلته الثانية إلى مسقط رأسه طنجة ، ودخل في بلاد الأندلس ، ثم عاد إلى فاس وقد عزم على أن يقوم برحلة ثالثة في السودان الغربي ، ليطلع على أحوال المسلمين هناك ويشاهد تلك البلاد .

٥

في السودان الغربي

خرج ابن بطوطة من مدينة فاس قاصداً سجلماسة في الجنوب ، وهناك اشترى الجمال وأعدها لهذه الرحلة الشاقة في الصحراء الكبرى . وبدأ رحلته مع قافلة تقصد هذه الديار ، وكان ذلك في غرة المحرم سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢م وكان مقدّم القافلة ورائدها أبا محمد يَنْدكان المَسُّوفي . ووصلوا بعد خمسة وعشرين يوماً إلى تَغَازا ، ولم يكد يصل إليها حتى عجب من بيوتها إذ رآها تتّخذ من حجارة الملح ، ولم يكن يسكنها إلا عبيد مَسُّوفة وهم يحفرون

على الملح فى الأرض ، فيجدون منه ألواحاً ضخاماً ، يبيعونها لأهل السودان ، ويقول ابن بطوطة إن للملح عند السودانيين شأناً كبيراً حتى إنهم يتبايعون به ، كما يتبايع غيرهم بالذهب والفضة . ووصلت القافلة إلى تاسَرْهلا ، ومن هناك بعثوا برائد من قبيلة المسوفة إلى « إيوالاتن » جرياً مع عادة القوافل ، إذ يكتب الناس مع هذا الرائد لأصحابهم بتلك البلدة حتى يَكْتَرُوا لهم الدور ، ويخرجوا للقائهم إيذاناً لهم بالدخول . ودخل « إيوالاتن » بعد مسير شهرين من سجلماسة ، وأكرمه قاضيها وعلماؤها ، ولاحظ أن الناس هناك يلبسون ثياباً من نسيج مصر ، وأن النساء جميلات فاتنات وأن الرجال لا يغارون عليهن وأن الرجل يرثه أبناء أخته دون بنيه ، ويقول « ومع ذلك فهم مسلمون يحافظون على الصلوات وتعلُّم الفقه وحِفْظ القرآن الكريم » .

وعَقَد العزم على الوصول إلى « مالى » جنوبى نهر النّيجر ، فاستأجر هو وثلاثة من أصحابه دليلا من قبيلة المسوفة ولم يكد يمضى فى الطريق حتى عجب من كثرة الأشجار وضخامتها ، حتى إن الواحدة منها تُظل القافلة ، ولاحظ أن فى بعضها فجوات كبيرة يُحْفَظُ فيها ماء المطر ، وكأنها آبار ، والناس يشربون منها الماء . وعلى طول الطريق بقول وأشجار فواكه ، يقول :

« والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً ولا ديناراً ولا درهماً ، وإنما يحمل قطع الملح وحلىّ الزجاج وبعض السِّلَعِ العطرية . وأكثر ما يعجبهم منها القَرَنْفُل والمَصْطَكا ، فإذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفولى ، وهو كحبّ الخردل يصنعُ منه العصيدة ، ودقيق اللوبياء ، فيشترى منهن ما أحبّ من ذلك » .

وما زال فى طريقه حتى وصل إلى « زاغة » وهى من البلاد التى دخلها الإسلام قديماً ، وأعجب بأهلها ، وانتهى إلى كارسخو على نهر النّيجر فظنه النيل ، وظل فى رحلته حتّى وصل إلى مالى حاضرة ملك السودان الغربى ، وكان قد

كتب إلى بعض الجالية العربية بها ، ليأخذ له الإذن فى دخولها ، وليكترى له داراً ينزل بها ، والتقى فيها بتاجر مصرى يسمى شمس الدين بن النقويس ، وأكرمه قاضي مالى وفقهاؤها : أما ملكها أو سلطانها فقد وصفه بالبخل ، إذ لم يلق عنده من كرم الضيافة ما لقيه فى المشرق قاصيه ودانيه عند الملوك والسلاطين . ومن طريف ما ذكره ابن بطوطة عن هذا السلطان المسلم احتفاله بعيدى الفطر والأضحى ،وما يتخذ لذلك من مجلس كبير يتغنى فيه مغنيات حسان ويلعب فيه غلمان على رءوسهم الشواشي البيض ويتقلّبون فى الهواء ويأتون بحركات خفيفة رشيقة . ثم يستقبل السلطان الشعراء . يقول ابن بطوطة :

« يجيء الشعراء وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش، تشبه (طائر) الشقْشاق وجُعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر ، كأنه رأس الشقشاق . ويقفون بين يدى السلطان ، فينشدون أشعارهم . ثم يصعد كبير الشعراء على درَج البَنْبي (مجلس السلطان) فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ، وهو يتكلم بلسانهم ، ثم ينزل » .

وأشاد ابن بطوطة بشمول العدل والأمن فى هذه الديار وأن المسافر فيها لا يخاف سارقاً ولا غاصباً ، وأن الناس هناك يواظبون على الصلاة ويعنون بأدائها فى الجماعات وأن من لا يبكّر إلى المسجد فى يوم الجمعة لا يجد أين يصلى لكثرة الزحام . وقال إنهم يعنون بحفظ القرآن الكريم عناية شديدة .

ومكث فى مالى نحو ثمانية أشهر ، وخرج منها فى المحرم سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م ميمماً شطر « تنبكتو »،ولم يكد يشرف على نهر النيجر حتى رأى ست عشرة دابة ضخمة الخلقة ، فظنها فيَلة ، ولكنه وجدها تدخل فى النهر ، فسأل عنها فعرف أنها أفراس البحر ، ووصفها بأنها « أغلظ من الخيل ، ولها أعراف وأذناب ، ورءوسها كرءوس الخيل ، وأرجلها كأرجل الفيلة . . . وهي تعوم فى الماء وترفع رأسها وتنفخ » . وذكر أن الناس هناك يصيدونها ويأكلون

لحمها . وهنا نراه يتحدث عن أكَلة لحوم البشر ، ويقص حكايات تُرْوَى عنهم ويصل إلى تنبكتو ، ويحدثنا أنه رأى بها قَبْر سراج الدين بن الكُوَيك أحد كبار التجار من أهل الإسكندريه ، ويذكر في سبب ذهابه إلى هناك أن حاكم هذه المدينة لما حج اقترض منه مالا ، فتوجه إليه ، ومعه ابنه ، فتصادف أن أدركه الموت هناك ، فدفن حيث مات ، وعاد ابنه بالمال .
ويولّي ابن بطوطة وجهه إلى الشرق ، فيركب النيجر في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة ، وينزل بالقرى في كل ليلة ، فيشترى ما يحتاج إليه من الطعام بالملح والعطريات وحليّ الزجاج ، ويصل إلى مدينة كَوْكَوْ ، ويقول إنها مدينة كبيرة على النيل (النيجر) من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها . وفيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك وبها الفَقّوص العنانى (ضرب من القثاء) الذى لا نظير له ، وتعاملُ أهلها فى البيع والشراء بالودع ، وكذلك أهل مالى .

ورحل عن كوكو إلى تَكَدّ ، وقال إنها مبنية بالحجارة الحمر ، ولا زرع بها إلا يسير من القمح ، ولا شغل لأهلها غير التجارة يسافرون بها إلى مصر ، ويجلبون منها حسان الثياب وسواها .

ونَوّهَ ابن بطوطة بسلطان هذه البلدة لإكرامه له وحفاوته به ، ويظهر أنه كان ينوى الإقامة عنده ثم يتجه شرقاً إلى السودان وحوض النيل ، ولكن جاءه رسول من قبل سلطان فاس يأمره بالعودة ، فصدع بالأمر وعاد إلى فاس ، فوصلها بعد ثلاثة أشهر . وبذلك انتهت رحلة ابن بطوطة ، أعظم رحّالة عرفه العرب فى تاريخهم الوسيط .

الفهرست

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

* سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

* العصر الجاهلى
الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة
* العصر الإسلامى
الطبعة العاشرة ٤٦١ صفحة
* العصر العباسى الأول
الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
* العصر العباسى الثانى
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
* عصر الدول والإمارات (١)
الجزيرة العربية - العراق - إيران
الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة
* عصر الدول والإمارات (٢)
مصر - الشام
الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
* الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
* التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة
* دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
* شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة
* الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات
* البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الرابعة ٢٣٢ صفحه
* الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحه
* البحث الأدبى : طبيعته - ومناهجه - أصوله - مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
* الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

* فى النقد الأدبى
الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة
* فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

* البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة
* المدارس النحوية
الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة
* تجديد النحو
الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة
* تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده
الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

* ابن زيدون
الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

* الرثاء

الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات

* المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة

* النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

* الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

* الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

* المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحه

الجزء الثانى - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

* كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

* كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

* الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

فى سلسلة اقرأ

* العقاد

الطبعة الرابعة

* البطولة فى الشعر العربى

الطبعة الثانية

* معى

الطبعة الثانية

* الفكاهة فى مصر

الطبعة الثانية

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٢٤١٧
الترقيم الدولى	١-١٩٨٥-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٧ / ٣١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربى ألواناً من الفنون الأدبية التى عالجها الأدب العربى فى مختلف أقطاره وعصوره . فهى تقف أمام كل فن أدبى فتعالجه فى جزء أو أكثر من هذه السلسلة التى سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التى تكون فى مجموعها ذلك الهيكل الأدبى الضخم الذى شيدته العربية فى تاريخها الطويل .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربى لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا فى كتب التاريخ الأدبى ... ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون ... فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع ... وهكذا تكبر هذه المجموعة على قدر ما فى الأدب العربى من فنون .